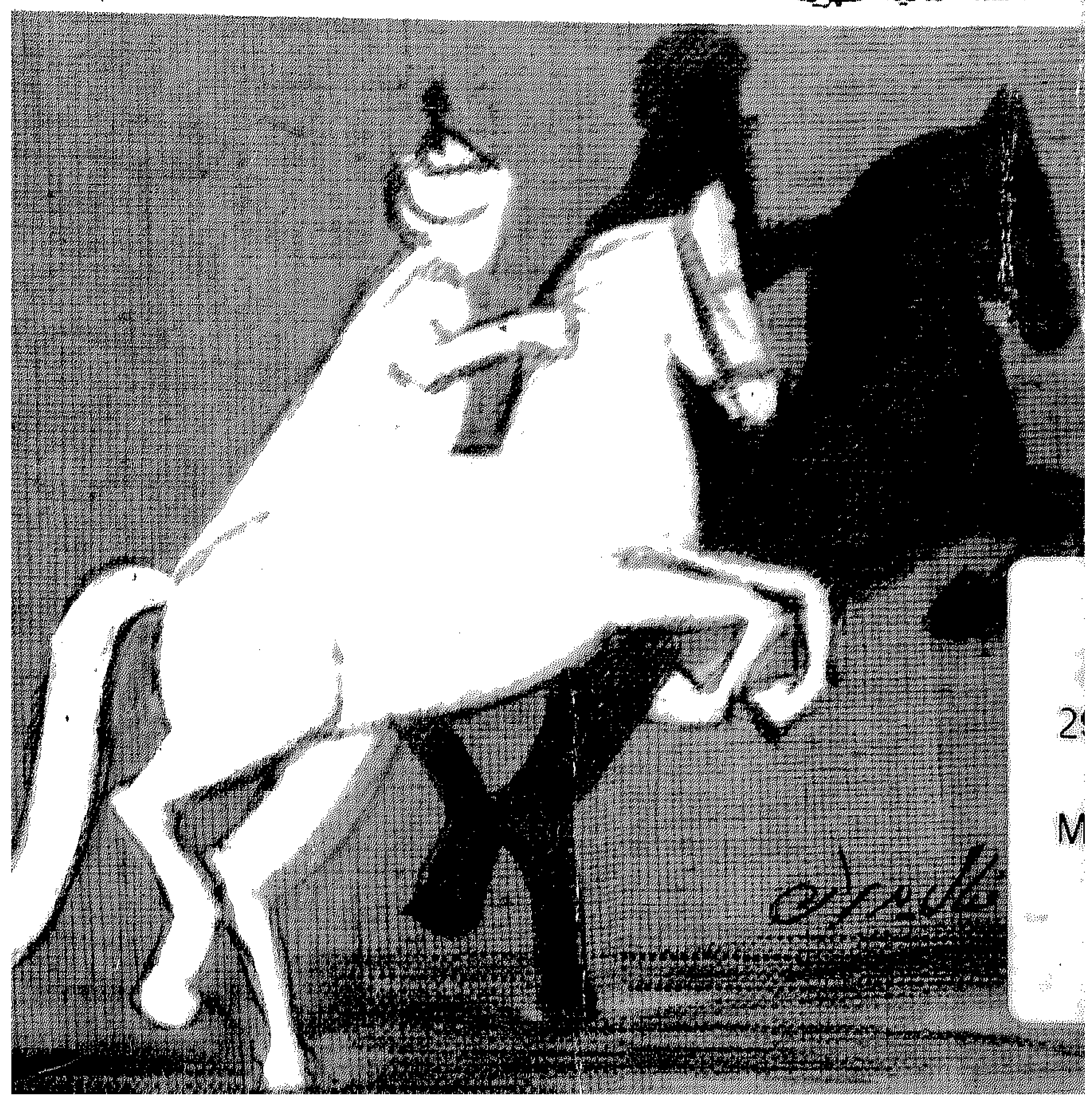
محمد جمال الدين محفوظ

العسكرية في الإسلام

سلسلة ثقافية شهرية



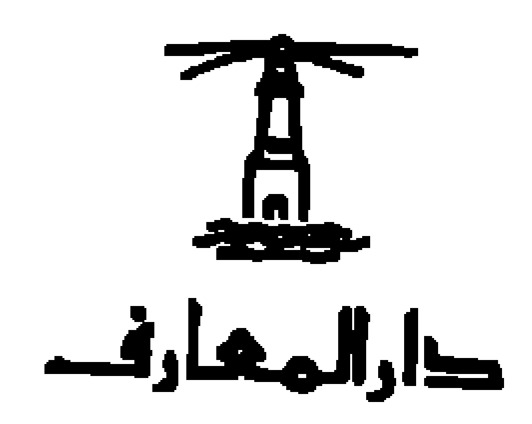
اقرأ

[٥٩٨]

رئيس التحرير : رجب البنا

لواء أ.ح محمد جمال الدين محفوظ

العسكرية في الإسلام



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القــراءة إلى الاستزادة من الثقــافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

العسكرية الإسلامية ونهضتنا الحضارية

• الإسلام حضارة كاملة ، ودستور شامل لأمور الحياة دينا ودنيا .. ولما كانت الحرب ظاهرة اجتماعية ، فقد عالجها الإسلام ، ووضع لها المبادئ الرئيسية لكل ما يتصل بها من حيث أهدافها وأساليب إدارتها وقوانينها وآدابها .

والباحث المنصف يجد فى تعاليم الإسلام المستقاة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة القولية والفعلية والتقريرية ، كل ما تحتويه المدارس العسكرية العالمية فى الشرق أو الغرب من نظريات أساسية فى شئون الحرب .

وبذلك يمكن أن يقال : إن العرب أصبح لهم بعد الإسلام مدرسة عسكرية لأول مرة فى تاريخهم .

• وكان الرسول ﷺ قائد هذه المدرسة ومعلمها الأول .. وإذا كان علماء النفس وخبراء القيادة العسكرية قد استخلصوا الصفات التى يجب أن يتحلى بها القائد الكفء . وذلك من خلال دراستهم لشخصيات أبرز القادة فى التاريخ الحربى ، فذكروا منها قوة الشخصية والشجاعة واليقظة

والحسم وقوة التحمل والتواضع والمبادأة والنزاهة والروح المرحة والذكاء والعدل والحكمة واللباقة ؛ فإن كل هذه الصفات بل وصفات أخرى غيرها قد اجتمعت لدى الرسول القائد ﷺ ، فهو المثل الكامل والقدوة المثلى كما يقول الله تعالى :﴿لقد كان لكُمْ في رسُول اللّهِ أُسْوةٌ حَسَنَةٌ﴾
[الأحزاب : ٢١]

وكما خاطبه بقوله : ﴿وإنَّكَ لعلَى خُلقٍ عَظيم﴾
[القلم : ٤]

فقد وضعه الله تحت حراسته ورعايته حتى حدث هو عن نفسه فقال : «أدبني ربى فأحسنْ تأديبي» .

فلا عجب إذن أن يظهر الرسول القائد ﷺ في الأمور العسكرية ما يثير الإعجاب والتقدير من عبقرية فذة في القيادة والتخطيط وإدارة المعارك .

* وفى المدرسة العسكرية الإسلامية ، تعلم أجدادنا المسلمون الأوائل من قادة وجنود جيش الإسلام الأول ، وطبقوا تعاليمها ونظرياتها عمليًا فى ميادين القتال ، دفاعًا عن الدين والأمة ، فكانوا مضرب الأمثال فى القيادة والشجاعة والعبقرية الحربية ، وأثبتت نظريات تلك المدرسة عمليًا صحتها وكمالها .

وتاريخ معارك الإسلام فى عصر النبوة وحده – على سبيل المثال – يشهد للمسلمين بقدرتهم وكفاءتهم العالية على القيام بجميع أشكال

العمليات العسكرية كالدفاع والهجوم والمطاردة والتخلص من المعركة ومسير الاقتراب ، والإغارات وأعمال الاستطلاع والمخابرات والحرب النفسية ودوريات القتال ، والهجوم على القرى والمواقع الحصينة وأعمال الحصار .. الخ .

وقيام المسلمين بهذه العمليات المتنوعة ، دليل على كفاية تدريبهم عليها كما يقول فيلسوف الحرب كلاوزفتز : «يمكن للقوات العسكرية المدربة جيدًا أن تقوم بجميع الأعمال العسكرية» .

• ولعل أبرز ثمار المدرسة العسكرية الإسلامية نتيجة لتطبيق نظرياتها وتعاليمها على أيدى الرجال الذين تعلموا فيها هو ما أصبح من حقائق التاريخ التى لاتنازع والتى نذكر منها ما يلى :

١ – تأمين الدعوة وتأسيس الدولة الإسلامية ، وتحقيق الأمن والاستقرار لها لكى تؤدى رسالتها لخير البشرية .

٢ – امتداد الفتوحات الإسلامية فى أقل من مائة عام من حدود الصين شرقًا إلى المحيط الأطلسى غربًا .

٣ – تمكين الأمة الإسلامية الناشئة من إدارة دفة الحرب فى جبهتين عظميين فى «وقت واحد» فى مواجهة أعظم قوتين عالميتين فى ذلك الوقت هما فارس وبيزنطة والانتصار عليهما ، وهذا مثل فريد فى التاريخ الحربى .

٤ – إتقان العرب – وهم أبناء الصحراء – ركوب الأساطيل والحرب البحرية وتغلبهم على أسطول بيزنطة وهى كانت أعظم قوة بحرية فى زمانها .

٥ – فتح الطريق لتأسيس الحضارة الإسلامية لخير البشرية فى ميادين العلوم الطبيعية والاجتماعية .

• لكن لماذا لم ندرس «العسكرية الإسلامية فى معاهدنا» ؟؟

الواقع أنه قد أريد بالعسكرية الإسلامية أن تنطمس معالمها فى إطار حرب حضارية طاحنة ، تستهدف طمس معالم الحضارة الإسلامية ومنع قيامها من جديد . وكان من آثار ذلك أن عاشت دول عربية وإسلامية كثيرة تعتمد زمنًا طويلاً على الدول الأجنبية فى مجال العلم العسكرى ، وفن الحرب سواء من الناحية النظرية أو التطبيقية ، فأصبح رجال العسكرية فيها يدرسون النظريات العسكرية الأجنبية ، وأعمال القادة الأجانب ، والتاريخ العسكرى للدول الأجنبية ، وكأنه ليس للعرب والمسلمين نظريات عسكرية ، ولا قادة ولا تاريخ عسكرى يستحق الدراسة ، كما عاشت تلك الدول تعتمد على الدول الأجنبية أيضًا فى تزويد جيوشها بالسلاح والعتاد ، وكأنه ليس للعرب والمسلمين قدرة على الصناعة الحربية أوبحوثها العلمية !!

• وهكذا كان فرض التبعية على العرب والمسلمين فى مجال الفكر العسكرى وفن الحرب هدفًا من بين أهداف الحرب الحضارية ، التى شنها الأعداء على الأمة العربية والإسلامية . ودليلنا على ذلك هو ما يلى :

١ - إن الباحث المطلع يلاحظ أنه منذ عصر النهضة حتى اليوم ، وضعت آلاف الكتب حول الإمبراطورية الرومانية ، فى حين لا يتعدى ما كتب فى الغرب عن الفتوحات الإسلامية عدد أصابع اليد ، ويفسر لنا السر فى ذلك شاهد من الغرب هو الجنرال جون باجوت جلوب فى كتابه (الفتوحات العربية الكبرى) فيقول : «إن أوربا ظلت قرونا طويلة تعتبر الفتوحات الإسلامية كوارث رهيبة ، ولم يكن ثمة مسيحى يود أن يذكره الناس بها ، وليس المؤرخون إلا بشرًا ، ولذا تثبط عزائمهم إذا لم يجدوا من يقرأ لهم ، فقد كتب سيمون أوكلى ، وهو أحد المؤرخين الإنجليز الأوائل الذين أرخوا للفتوحات العربية بعض كتبه العظيمة ، وهو رهن السجن فى كمبردج وفاء لدين عليه ، ولم يكن دخله من بيع كتبه كافيًا لتمكينه من إعالة أسرته» .

٢ - إن من الباحثين الأجانب الذين تناولوا الأعمال العسكرية الإسلامية[١] من يدعى أن الإسلام كان متخلفًا فى المجال العسكرى ، وأنه لم يضف جديدًا إلى فن الحرب ، ومن أراد منهم أن يبدو موضوعيًا

---

(١) انظر التفاصيل فى المصادر التالية على سبيل المثال :
- صفحة ١٩٩ إلى ٢٠١ من كتاب
The Ensyclopedia of Military History (By Ernest Dupuy & Trevor N. Dupuy).
- وصفحة ٤٣ إلى ٤٦ من كتاب
The Arabs, A Short History (By Philip K. HITTI).
- وصفحة ٤٠٥ من دائرة المعارف البريطانية ج٢ .

في دراسته نراه يركز كثيرًا على الدوافع المعنوية من الإيمان وقوة العقيدة ، ولا يتناول الجوانب الفنية للمعارك من زاوية العلم العسكرى وفن الحرب ، التى تزخر بها معارك الإسلام حقيقة . ولسنا هنا بصدد الرد على كتابات العسكريين الأجانب عن العسكرية الإسلامية ، فذلك أمر يتطلب مؤلفًا خاصًّا ، ولكننا نوجه السؤال المنطقى التالى : هل يقبل العقل أن تكون الشجاعة وقوة العقيدة وحدهما وراء النجاح فى العمليات الحربية للمسلمين دون أن يكون معهما شيء من الكفاية الحربية فى القيادة وأساليب القتال ؟ وهل يقبل العقل أن يكون من العرب رواد فى كل نواحى العلوم الطبيعية والاجتماعية ولا يكون منهم رواد فى فن الحرب ؟

٣ – وبعض المؤرخين يحاول أن يهون من عظمة المسلمين وانتصاراتهم ، فيعلل سرعة الفتح الإسلامى باندفاع الغرائز الحربية المتأصلة فى المسلمين منذ الجاهلية التى تدفعهم إلى السلب وأعمال القرصنة ، ويضيف إلى ذلك ضعف الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية ، وفى ذلك يقول الأستاذ عباس محمود العقاد[١] :

«وما يزال الأكثرون من المؤرخين المحدثين يستعظمون على العرب أن يغلبوا الفرس والروم ، ويحسبون هذه الغلبة شيئًا قد حصل ، وكان ينبغى ألا يحصل ، لولا أنها فلتة لا يقاس عليها ، ومصادفة لا تقبل التكرار ، وبعضهم يلتمس العلة فيقول : إنها عقيدة المسلمين

(١) عبقرية خالد – عباس محمود العقاد (المقدمة – البادية والحرب) .

القوية ، وافتقار الفرس والروم إلى مثل هذه العقيدة ، وكل أولئك تعليل ناقص من كل نواحيه :

(أ) فالمصادفة ، لا محل لها في حوادث الوجود ، ولا تطرد في قتال بعد قتال ، من جوف الصحراء إلى عمران العراق والشام ومصر ومشارق الأرض ومغاربها بين أفريقيا والصين .

(ب) وانحلال دولة من الدول ، قد يفنيها ويعجزها عن النصر ، ولكنه لا يقيم دولة أخرى لم تتجمع لها أسباب النهوض والتمكن .

(جـ) والعقيدة ، قوة لا غناء عنها بقوة أخرى لمن يفقدها ، ولكنها هي وحدها لا تغني عن الخبرة والاستعداد ، ولا تفسر لنا اختلاف النجاح باختلاف الخطط والقواد ، وقد كان المسلمون على عقيدتهم الراسخة يوم لقائهم هوازن وشيعتها بوداي حنين ، فأوشكوا أن ينهزموا لاعتدادهم بكثرتهم وقلة مبالاتهم بعدوهم ، وأوشكت عاقبة الاستخفاف هنا أن تصيب المسلمين كما أصابت الفرس والروم ، وفي ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ويومَ حُنينٍ إذْ أعْجبتكُمْ كَثْرتكُمْ فلم تُغْنِ عَنكُمْ شيئًا وضاقَتْ عليكُمُ الأرضُ بما رحُبتْ ثم ولَّيْتُم مُدْبرينَ﴾

[التوبة : ٢٥]

فمهما يهرب هؤلاء المؤرخون من الحقيقة فلا محيص لهم من الرجوع إليها لفهم الغلبة الإسلامية أو فهم الهزيمة الفارسية والرومانية ، وهذه الحقيقة هي أن المسلمين أيضًا كانوا أخبر بالفنون العسكرية من أهل فارس

والروم ، وكانوا أقدر على تنفيذ الخطط العسكرية التى تنفعهم من قواد تينك الدولتين ، وأن البادية العربية سواء فى عصور الجاهلية أو صدر الإسلام ، لم تكن من الجهل بفن الحرب بتلك الحالة التى توهمها المؤرخون الأوروبيون ، بل معظم المؤرخين عامة ، ولا نحاشى منهم العرب والمسلمين» .

٤ – وفى اعتقادى أن أعداء الإسلام أرادوا – إحكامًا لتنفيذ مخططهم لطمس معالم العسكرية الإسلامية – أن يمنعوا رجال العسكرية المسلمين من تناول العسكرية الإسلامية بالدراسة ، فروجوا دعوى أن الإسلام قام بالسيف ، وهى دعوى مغرضة من بين أهدافها ، فرض نوع من الحساسية حول تناول الجوانب العسكرية فى الإسلام ، بحيث يؤثر الكتاب المسلمون المتخصصون تجنب دراستها من وجهة نظر العلم العسكرى وفن الحرب .

• من أجل ذلك فإن قضية أمتنا العربية والإسلامية اليوم هى مقاومة كل محاولة للغض من تاريخنا ، وطمس معالم حضارتنا ، وتحويلنا عن مقوماتنا الأساسية .

ونقطة الإنطلاق نحو النهضة الحضارية الشاملة ، هى إحياء العسكرية الإسلامية بالدراسة والتحليل والتمجيد على أساس النقاط التالية :

١ – التعريف بالمدرسة العسكرية الإسلامية ، وما تحتوى عليه من نظريات ومبادئ وأساليب وآداب ، وكل ما يتعلق بشئون الحرب .

٢ – تصحيح المفاهيم التى سادت لدى الدول الأجنبية وصدقها بعض العرب والمسلمين عن تخلف الإسلام فى مجال العلم العسكرى ، وفن

الحرب والتى حفلت بها المراجع الأجنبية التى تناولت تاريخ الحروب وتطور فن الحرب ، وذلك بالأسلوب العلمى المدعم بالحجة والبرهان .

٣ - توحيد العقائد والاستراتيجيات العسكرية للأمة العربية والإسلامية على أساس تعاليم الإسلام ، والمدرسة العسكرية الإسلامية ، والعمل بمبادئها ونظرياتها فى بناء قوتها الحربية وإعداد وتدريب قادتها ومقاتليها .

* هذه - فى يقينى - هى القاعدة الراسخة الثابتة ، التى يجب أن نقف عليها جميعًا اليوم ، ونثبتها فى عقول أبنائنا ونفوسهم ، حتى تكون بقيمها السامية ومقاصدها النبيلة ، حصنهم الأول الذى يحتمون فيه من سهام الغزو الفكرى العسكرى ، وقاعدة انطلاقهم نحو بناء القوة الذاتية لأمتهم ، ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز﴾.

عقيدة الجهاد واستراتيجية الردع

• لقد سبقت حكمة الله جل شأنه أن تكون الأمه الإسلامية أمة مجاهدة عزيزة الجانب ، ولم يرد لها أن تخضع ، ولا أن ترضى بالذلة ، ولا تستكين إلى هوان ، فأوجب عليها الجهاد فى سبيله ، وجعله الوظيفة الشريفة التى اختارها لأدائها كما يفهم من قوله تعالى : ﴿وجَاهِدُوا فى اللَّهِ حَقَّ جِهَاده هو اجْتَباكُمْ﴾

[الحج : ٧٨]

و(اجْتباكُم) يعنى اختاركم ، فالاختيار هنا تكريم وتشريف لهذه الأمة التى جعلها الله فى خير منزلة بين الأمم فى قوله تعالى : ﴿كُنتم خيْرَ أمةٍ أُخرِجتْ للنَّاسِ تَأْمُرونَ بالمعروفِ وتَنهوْنَ عن المنْكرِ وتؤْمِنُونَ باللهِ﴾

[آل عمران : ١١٠]

وقد ربط الله سبحانه وتعالى الإيمان بالجهاد فى صورة محكمة متماسكة بحيث يزول الإيمان عند الفرار من الجهاد ، وعند النكوص عنه وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿يَأيُّها الَّذينَ آمَنُوا إذا لَقيتُمُ الَّذينَ كَفروا زَحفًا فَلا تُولُّوهُمُ الأدْبارَ . ومَنْ يُولِّهِمْ يَومئذٍ دُبُرَهُ إلا مُتحرِّفًا لقتالٍ أو مُتحيزًا إلى فئةٍ فقد بَاءَ بغَضبٍ من اللَّهِ ومأْوَاهُ جَهنمُ وبِئْسَ المْصِيرُ﴾

[الأنفال : ١٥ ، ١٦]

ويقول جل شأنه : ﴿إنَّ اللَّه اشْترى مِنَ المؤْمنينَ أَنفُسَهمْ وأموالَهُمْ بأنَّ لهمُ الْجنَةَ يُقَاتلونَ فى سَبيلِ اللَّهِ فيقْتُلُون ويُقْتَلونَ وعدًا عليه حَقًّا فى التوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ ومَنْ أَوْفَى بعهده من اللَّهِ فاسْتَبشِرُوا ببيعكُمُ الّذى بَايعتُم به وذَلك هو الفوزُ الْعظيمُ﴾

[التوبة : ١١١]

* وكان المسلمون الأولون يتسابقون إلى الجهاد ، ولا يعتذرون عنه أو يستأذنون النبى فى التخلف عنه كما يقول الله :

﴿لا يَسْتأْذِنُكَ الَّذينَ يُؤْمنونَ باللّه واليومِ الآخرِ أن يُجَاهدُوا بأموالهمْ وأنفسِهمْ واللَّهُ عليمٌ بالمتقينَ﴾

[التوبة : ٤٤]

أما المنافقون الذين لا إيمان لهم فكانوا ينتحلون المعاذير فرارًا من الجهاد ويستأذنون فى النكوص عنه ، ويلجئون إلى الاستنامة عنه والفتور ، كما يقول الله فيهم : ﴿إنَّما يستَأْذِنُكَ الَّذينَ لا يؤْمنون باللَّهِ واليوم الآخرِ وارْتابتْ قُلوبهُمْ فَهُمْ فى ريْبِهمْ يتردَّدُونَ﴾

[التوبة – ٤٥]

ه وقال النبى ﷺ :

– «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم» (أخرجه البخارى)

– وعن أبى الدرداء رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : «من اغبرت قدماه للجهاد فى سبيل الله حرم الله سائر جسده على النار» (أخرجه الطبرانى)

– وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : «قيل يارسول الله أى الناس أفضل ؟

قال : «مؤمن يجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله» (أخرجه البخارى)

– وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : «قلت يارسول الله أى الأعمال أفضل ؟

قال : «الإيمان بالله والجهاد فى سبيله» (رواه البخارى ومسلم)

– وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا تركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم» (أخرجه أبو داود) .

– وقال ﷺ : «الجهاد ماض إلى يوم القيامة» .

ه والجهاد يكفل للأمة الإسلامية ما يسمى فى العصر الحديث «الكيان العسكرى للأمة» ، فقوة الأمم – فى الواقع – لا تقاس بقوة جيشها فحسب ، بل تقاس أيضًا بقوة كيانها العسكرى كأمة .

والكيان العسكرى للأمة يقوم على القاعدة العريضة التى تضم أبناء الأمة جميعًا حين يجمعهم إحساس عام بالخطر المحدق ، وإيمان راسخ وعقيدة قوية وشعور بالواجب والمسئولية ، وإيجابية وإخلاص فى العمل ، واستعداد لبذل الروح والدم فى سبيل الدفاع عن الحق والشرف والكرامة .

أى أن الكيان العسكرى للأمة يقوم على أساس الكيان العسكرى لكل فرد من أبناء هذه الأمة حين يملؤه إحساس صادق نابع من عقله وقلبه ، بأن شخصيته ووجوده ومصيره وآماله ترتبط إرتباطًا كليًّا بتأهبه الدائم واستعداده بكل قدراته لرد العدوان ، عن أمته مهما تكن التضحيات ، وهذا ما كان عليه المسلمون الأولون ، إذ كان الشعب كله جيشًا مجاهدًا يؤدى كل فرد فيه ما يستطيع أداءه ويسهم الجميع فى سبيل توفير أسباب النصر ، فقد ملأت عقيدة الجهاد قلوبهم لأن الجهاد تكليف لهم جميعًا .

• كذلك أمر الله تعالى بإعداد القوة والمرابطة على النحو الذى يرهب الأعداء ويخيفهم من عاقبة عدوانهم ، فقال جل شأنه :

﴿وأَعِدُّوا لهم مَّا استَطعْتم مِّن قوةٍ ومن رِّباطِ الخيل تُرهِبُونَ به عَدُوَّ اللَّهِ وعَدوَّكُمْ وآخرينَ من دُونِهِمْ لا تعلمونَهُمُ اللَّهُ يعلَمُهُمْ﴾

[الأنفال : ٦٠]

وقال النبى ﷺ : «نُصرتُ بالرُّعْبِ مَسِيرة شهر» (متفق عليه) ومن ذلك نستخلص أن الإسلام :

١ – يأمر بإعداد القوة ورباط الخيل .

٢ – ويجعل الهدف من إعداد القوة ورباط الخيل «إرهاب» الأعداء : أى أن الإسلام قد قيد الأمر بإعداد القوة والمرابطة بقوله تعالى ﴿ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ وذلك يفهم منه أن القصد هو إرهاب الأعداء وإخافتهم من عاقبة عدوانهم على بلاد الأمة .

ويفهم أيضًا من حديث الرسول ﷺ : «نصرت بالرعب مسيرة شهر» أن إظهار القوة للأعداء وإخافتهم ، يحقق النصر عليهم ويؤدى إلى تحقيق أهداف الرسالة الإسلامية أكثر من أية وسيلة أخرى .

هذه هى استراتيجية الردع الإسلامية ، وهى – كما هو واضح – «موقف مبدئى» للعسكرية الإسلامية منذ أربعة عشر قرنا ، وقد طبقها الرسول القائد ﷺ فى معارك عصر النبوة كما يتبين من تحليل الغزوات التى قادها عليه السلام بنفسه ، وبلغ عددها ثمانيا وعشرين غزوة ، فإننا نجد تسع عشرة غزوة (١٩) منها حققت أهدافها بدون قتال بسبب فرار الأعداء أمام قوة المسلمين ، ولم ينشب القتال إلا فى تسع غزوات فقط هى (بدر – أحد – الخندق – بنى قريظة – بنى المصطلق – خيبر – فتح مكة – حنين – الطائف) .

ه والأمر الذى يستحق الذكر – ويثير العجب أيضًا – هو أن هذه الاستراتيجية الإسلامية فى الردع التى تكون أساسًا للنظريات الحربية فى الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا ، تعتبر نظرية العصر الذى نعيش فيه ، إذ يصفها خبراء الاستراتيجية العسكرية بأنها مفتاح الاستراتيجية فى القرن

العشرين ، وقد وصل إليها الفكر العسكرى العالمى بعد معاناة قاسية وطويلة فى حروب طاحنة اكتوى العالم بنارها ، وذلك ما يعبر عنه الجنرال أندريه بوفر بقوله :

«إن رجل القرن العشرين الذى تلاحقه مآسى الحربين العالميتين ١٩١٤ - ١٩١٨ ، ١٩٣٩ - ١٩٤٥ ، هذا الرجل المسلح بكل وسائل العلم الحديث ، ربما وجد أخيرًا الوسيلة لمنع وقوع مثل هذه المآسى ، وهى استراتيجية الردع» .

• وقد أصبح الردع فى عصرنا مقترنًا بأسلحة التدمير الشامل وخاصة الأسلحة النووية ، وأصبح تحقيق ما يسمى «بالتوازن الذرى» ، هو الشغل الشاغل للدول الكبرى فى الشرق والغرب ، وذلك بعد أن اقتنع الجميع بعدم جدوى الحرب وأن قيامها يعد عملية «انتحار» رهيبة ، لأن كلا من القوتين المتنافستين تملك القدرة على الانتقام والردع إذا ما تلقت الضربة المدمرة أولاً . يعبر عن ذلك قول مارشال الجو «تيدر : إن التسابق فى استخدام السلاح الذرى لن يكون صراعًا ، لكنه سيكون إنتحارًا مزدوجًا .

ولقد مهد التوازن الذرى وما لحق به من قوة الردع إلى محاولة منع التصادم ثم إلى ظهور سياسة الوفاق بين الكتلتين فى أوائل السبعينات من القرن العشرين وما يسمى باتفاقيات «سولت» لمحاولة وقف سباق التسلح فى مجال الأسلحة الاستراتيجية وما تلا ذلك فى أواخر الثمانينات من تقارب بين الشرق والغرب .

• ولابد لنا من إبراز ما تتميز به استراتيجية الردع الإسلامية من نوايا سلمية ومقاصد نبيلة لصالح البشرية :

١ – فاستراتيجية الردع المعاصرة مرتبطة كما قلنا «بالتوازن الذرى» ، فطالما هناك توازن بين القوتين العظميين فى القوى النووية ، فإن احتمال نشوب الحرب بينهما يكون بعيدًا ، لكننا لو تصورنا أن إحدى الكتلتين تمكنت من إحراز «تفوق ساحق» على الأخرى بحيث يختل هذا التوازن ، وهذا أمر وارد ومحتمل ، فإن المتوقع أن تندلع الحرب النووية فورًا بالنظر إلى ما يسود العلاقات الدولية من توتر وتناقضات فى المصالح .

أما الأمة الإسلامية فأمرها يختلف تمامًا ، ذلك أنها إذا تملكت القوة المتفوقة على خصومها حتى يصبح ميزان القوى فى جانبها ، فإن ذلك لن يغريها باستخدام تلك القوة ضدهم ماداموا ممتنعين عن العدوان عليها . أى أن الأمة الإسلامية «لا تتعدى حدود الردع» مادام يحقق هدفه وهو إخافة العدو ومنعه من استخدام القوة ﴿تُرهِبُونَ به عَدُوَّ اللَّهِ وعدوَّكُم﴾ وذلك أمر بدهى ، لأن العدوان ليس غاية من غايات الحرب فى الإسلام ولأن القصد من إعداد القوة هو إرهاب العدو ليمتنع عن العدوان .

٢ – واستراتيجية الردع الإسلامية تنطوى على حقن الدماء لأن هدفها هو منع الحرب ، فالقوة الإسلامية حين تدخل الرهبة فى قلب خصومها وتخيفهم من عاقبة عدوانهم ، سوف تمنعهم من الحركة بالعدوان تحسبًا للمخاطر التى يعرضون أنفسهم لها ، وهذا ما يميز الاستراتيجية الإسلامية

عن غيرها ويكفى أن نتأمل نظرية فيلسوف الحرب (كلا وزفتز) عن معنى الاستراتيجية والتى تتضح من أقواله التالية :

– قد يتصور المحبون للخير أنه توجد طريقة بارعة لنزع السلاح الذى فى يد العدو والتغلب عليه دون إراقة كثير من الدماء ، وأن هذا هو الاتجاه السليم لفن الحرب ، تلك غلطة يجب أن نمحوها !!

– يجب أن نصم آذاننا عن القادة الذين يتصورون دون إراقة الدماء !

– من الضرورى أن تكون فكرة «القتال» أساسًا لتفكيرنا !

٣ – واستراتيجية الردع الإسلامية تهيئ الفرصة الحقيقية بكل الحق والعدل لحل المنازعات والمشكلات بالوسائل السلمية دون اللجوء للحرب ، وهو ما لا تتسامى إليه كل اجتهادات القادة والزعماء والمنظمات الدولية قديمًا وحديثًا .. فإن الأساس الذى تقوم عليه هذه الاستراتيجية وهو إظهار القوة لمنع العدو من العدوان وعدم استخدام القوة إلا لرد الاعتداء ، يقنع الأمم الأخرى بالامتناع عن اللجوء إلى القوة لحل المنازعات ، وبأن طريق السعى لحل هذه المنازعات بالوسائل السلمية ليس مفتوحًا فحسب ، بل هو طريق مضمون النتائج لا تحيط به الشكوك ولا تنعدم به الثقة ، وليس فيه مخاطرة بالتنازل – تحت تهديد القوة – عن شىء من حق أو كرامة ، ولكن تحوطه كل معانى حب السلام والحق والعدل والتسامح وحسن النوايا وحب الخير للبشر أجمعين ، وتلك هى شريعة الإسلام التى نفت عن القوة كل معانى العدوان والغدر والظلم .

• ومن خصائص استراتيجية الردع الإسلامية تملكها لما يمنحها التأثير والفعالية ، فعلى الرغم من أن العسكرية الإسلامية ذات طابع دفاعى ، إلا أنها تملك القدرة الهجومية لاستخدامها على النحو الذى يحقق الردع المطلوب .

فإن اقتران الردع ﴿تُرْهِبُون به عَدُوَّ اللَّهِ وعدوَّكُمْ﴾ بالقوة والمرابطة ﴿من قوة ومن رباط الخيل﴾ يفهم منه بكل وضوح أنه لابد وأن تتوافر فى تلك القوة القدرة الهجومية التى تقنع العدو — حين يضع حساباته وتقديراته — بأنه سوف يكون هو الخاسر لو تحرك بعدوان .

وقد أبرز الاستراتيجيون هذا المبدأ فأكدوا : «أن العقيدة ذات الطابع الدفاعى البحت لن تكون لها إلا قيمة ضعيفة فى الردع إلا اذا توافرت لديها القوة الهجومية ، لأن مفتاح الردع هو القدرة على التهديد » .

وهذا هو ما يستوحى أيضًا من لفظ «قوة» الذى ورد فى الآية مطلقًا غير محدد ومن هنا فهو ينطوى على القوة الدفاعية والهجومية معًا ، وهو ما يستوحى كذلك من لفظ «الخيل» الذى ينطوى على مفهوم «الهجوم» مع ما يدل عليه من المعانى الأخرى الكثيرة .

• ونضيف إلى ذلك أن استراتيجية الردع الإسلامية تعتمد — فضلاً عن إظهار القوة — على الاستغلال الأمثل لعنصرين من أهم عناصر الاستراتيجية العسكرية وهما «الحركة والمفاجأة» .. وهذان العنصران يعبر عنهما «رباط الخيل» فى الآية الكريمة .. فالرباط : هو الحراسة والاستعداد للقتال الفورى عند الخطر ، والخيل : تعبير يشير إلى السرعة وخفة الحركة

والمباغتة ، وذلك ما يفهم أيضًا من قول الله تعالى : ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا . فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا . فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا . فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا . فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾
[العاديات : ١ - ٥]

ففى هذه الآيات يقسم الله تعالى بخيل الجهاد المسرعات التى يسمع لأنفاسها صوت هو الضبح من شدة الجرى ويتطاير الشرر من تحت حوافرها من شدة قدحها للأرض الحجرية والتى يهجم بها فرسانها على العدو فى وقت الصباح ليأخذوه على غرة ، والتى يكون من شدة جريها أن تثير غبار الطرق فى وقت الصباح فتدخل وسط جمع الأعداء فتشتته ، وتنطوى الآيات على تنبيه المؤمنين ليكونوا دائمًا على أهبة الاستعداد فيهابُهم ويخشاهم من تحدثه نفسه بإضعافهم . وقد فهم بعض المفسرين المحدثين معنى أوسع من الخيل وهو كل ما يعدو ويغير ويثير الغبار ويرسل الشرر (كالدبابات مثلاً) .

ه والجدير بالذكر أن الاستراتيجيين يؤكدون أن غرض الاستراتيجية الحق ليس «التغلب» على مقاومة العدو ، ولكن غرضها هو «التقليل من إمكان المقاومة» ثم يقررون أن الاستراتيجية تسعى دائمًا نحو إنجاز هذا الغرض باستغلال عناصر الحركة والمفاجأة كمايلى :

١ - فالحركة تقع فى «المحيط الطبيعى» إذ تعتمد على ظروف الزمان وعلى طبيعة الأرض (الطبوغرافية) وإمكانات النقل ، والمقصود بإمكانات النقل كل الوسائل والإجراءات التى يمكن للقوة بواسطتها أن تتحرك وتحتفظ بكيانها .

٢ – أما المفاجأة فتقع فى «المحيط السيكولوجى» إذ تؤثر على معنويات الخصم وعلى إرادته القتالية ، وهذه العوامل أصعب بكثير من العوامل الطبيعية السابق ذكرها .

ه ثم إن هناك ما يسمى «بالتأثير المتبادل» بين عنصرى الحركة والمفاجأة .. فكل منهما يؤثر على الآخر : يمهد له الطريق العمل ويدعمه ويقويه ، وهنا تكمن العبقرية العسكرية فى استغلال هذين العنصرين الاستراتيجيين :

١ – فالحركة تولد المفاجأة .

٢ – والمفاجأة بدورها تمنح الحركة قوة دفع جديدة فتمهد لها الطريق للتغلب على مقاومة العدو بسرعة وفاعلية .

ه ومما تتميز به استراتيجية الردع الإسلامية أنها لا تستهدف ردع العدو الخارجى الظاهر فقط ، بل تستهدف أيضًا ردع أعداء الأمة من القوى المضادة التى تعمل ضدها فى الخفاء ، والتى قد يكون خطرها – إذا غفلت عنها الأمة أو لم تتصد لها – أفدح بكثير من خطر العدو الظاهر .

ذلك هو ما يفهم بوضوح من نص الآية الكريمة : ﴿وأعِدُّوا لهم ما استَطعْتُم من قُوة ومن رباطِ الخيل تُرهِبُونَ به عدوَّ اللَّهِ وعَدوَّكُمْ وآخرينَ من دُونِهِمْ لا تعلمونَهُمُ اللَّهُ يعلمهُمْ﴾ ... إن «عدو الله» واضح ، وهو كل خوان أثيم يعتدى على حرمات الله ويجاهر بمعصيته .. و «عدوكم»

واضح أيضًا ، وهو عدو المسلمين وهو كل من يسيء إلى عقيدتهم أو إلى أوطانهم أو إلى حقوقهم المقدسة .

أما الفئة الثالثة وهى المعبر عنها بقوله جل شأنه : ﴿وآخرينَ من دونهمْ لا تعلمونَهُمُ اللَّهُ يعلمهُمْ﴾ .. فقد فسرها السابقون بالمنافقين الذين يلبسون ثوبًا ظاهره الرحمة ، وباطنه العذاب ، إلا أنه ينطوى بلغة العصر على كل القوى المضادة التى تحقد على الأمة وتنفث سمومها فى الخفاء ، وتروج الشائعات ، وتثير الفتنة وتغرى بالسلبية والفساد وتقتل الإرادة والإيجابية ، وتهدم الأخلاق . ومن هذه الفئة من يكون داخل البلاد الإسلامية وبين صفوف أبنائها ، ومنهم من يكون خارجها ، يدبر ويخطط ويتحرك بكل أساليب الدعاية والحرب النفسية ، من أجل ذلك فقد اشتملت استراتيجية الردع فى الإسلام على تلك الفئة من الأعداء الخفيين وأوجبت على الأمة الإسلامية إعداد كل وسائل القوة التى تردعها ، ومن ذلك مثلاً أساليب غرس وتنمية وعى الأمن ووسائل مقاومة الجاسوسية وغيرها .

وهكذا يتضح لنا أن استراتيجية الردع ، تحقق للأمة الإسلامية الأمن والعزة ، فالإسلام إذ يوجب عليها أن تعد ما تستطيع من قوة ، يستهدف أن تصبح الأمة الإسلامية شديدة الشوكة ، قوية البأس ، مرهوبة الجانب من قبل الأعداء ، قادرة على الدفاع عن نفسها وحماية حدودها ، ومواجهة كل من يعتدى على حرماتها أو يقف فى سبيل دعوتها ، لتكون أمة عزيزة لها سيادتها وكرامتها ، ولها وزنها وقيمتها فى هذه الحياة ، وليطمئن كل واحد فيها على نفسه ، ويأمن على ماله وعرضه.

الاستراتيجية الإسلامية واقتصاديات الحرب

• تربط العسكرية الإسلامية بين الاستراتيجية والاقتصاد برباط وثيق يتمثل فى انتمائهما إلى أصل واحد هو «القوة» بمفهومها الشامل . فإن مفهوم القوة فى الآية الكريمة : ﴿وأَعِدُّوا لَهم ما اسْتَطَعْتُم من قوةٍ ومن رِّباطِ الخيل﴾ يشمل جميع مصادر القوة المادية والمعنوية .

ثم ورد بعد ذلك فى نفس الآية ما يعبر عن الاقتصاد من مال وإنفاق : ﴿تُرهِبُون به عَدوَّ اللَّهِ وعدُوَّكُمْ وآخَرينَ من دُونِهِمْ لا تعلَمونَهُمُ اللَّهِ يَعلَمُهُمْ وما تُنفقُوا من شىء فى سبيلِ الله يُوَفَّ إليكمْ وأَنتمُ لا تُظْلمونَ﴾

[الأنفال : ٦٠]

• هذا الارتباط الوثيق بين الاستراتيجية العسكرية والاقتصاد يعنى أمرين فى غاية الأهمية :

١ – أن التنمية الاقتصادية فى الأمة الإسلامية ، وإن كانت تخضع لقوانين خاصة بها ، إلا أن عليها أن تراعى فى أهدافها وخططها الاعتبارات العسكرية .

٢ – فى زمن الحرب ، فإن اقتصاد الأمة الإسلامية يتقرر كلية وفقًا للمتطلبات العسكرية (وهو ما يعرف باقتصاد الحرب) ومن أجل ذلك

يجب أن يكون البنيان الاقتصادى قادرًا على التكيف مع متطلبات الحرب واحتياجاتها ، وأن تتولى القيادة السياسية العسكرية العليا تنسيق وتوجيه جميع موارد وإمكانات الدولة السياسية والاقتصادية والعسكرية نحو تحقيق الغاية السياسية من الحرب .

• ولهذا الارتباط أيضًا شأن خطير فى تقدير الإسلام يتمثل فى تحذير الله سبحانه لنا من التهاون فى امتثال أمره بأن ننفق أموالنا فى سبيل الله وهو تعريضنا لأن نلقى بأنفسنا إلى التهلكة .. يقول الله تعالى : ﴿وأَنْفِقُوا فى سَبِيل اللَّهِ ولا تُلْقُوا بأَيْدِيكُمْ إلى التهْلُكَةِ﴾

[البقرة : ١٩٥]

فبعد أن أمرنا بالإنفاق ، نهانا بقوله ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ لنفهم الحكمة فى الأمر بالإنفاق والمعنى أنكم إذا لم تبذلوا فى سبيل الله وفى سبيل تأييد الحق وحماية أنفسكم وبلادكم كل ما تستطيعون من المال ومن استعداد للدفاع ، فقد أهلكتم أنفسكم .

إن إنفاق الأموال والاستعداد للقتال قبل وقوعه هو الذى يقى البلاد من الهلاك ، والضن بالمال والحرص عليه وإمساكه عن البذل فى سبيل الخير والبر والدفاع عن الوطن والحق والنفس ، يوقع الأمة فى الهلاك ، ويعرضها لأن ينتهك العدو حرماتها ، ويغزو بلادها ويستعبد أبناءها ، ويعتدى على مقدساتها ويسلبها حقها فى إقامة شعائر دينها وفى حريتها وفى عقيدتها ..

• ولقد فرض الله الجهاد بالمال ، وقدمه على الجهاد بالنفس فى أكثر الآيات القرآنية التى تحث على الجهاد كما فى قوله تعالى : ﴿وجَاهِدُوا بأمْوالكُمْ وأنفُسِكُمْ فى سَبيل الله﴾

[التوبة : ٤١]

﴿إنَّ الَّذينَ آمَنوا وهَاجَرُوا وَجَاهدوا بأمْوَالِهمْ وأنفُسِهمْ فى سَبيل الله والَّذينَ آوَوا ونَصَرُوا أُولئكَ بعضُهُمْ أولياءُ بعض﴾

[الأنفال : ٧٢]

﴿الذينَ آمَنوا وهاجرُوا وجَاهَدُوا فى سَبيل الله بأمْوالِهِمْ وأنفُسِهِمْ أعظمُ درجةً عند الله وأُولئكَ هُمُ الفائزونَ . يُبشِّرهم ربهمْ برحمةٍ منهُ ورِضْوانٍ وجناتٍ لَهمْ فيها نعيمٌ مقيمٌ . خالدينَ فيها أبدًا إنَّ اللَّهَ عِندهُ أجْرٌ عظيمٌ﴾

[التوبة : ٢٠ - ٢٢]

﴿يَاأَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا هل أدُلكمْ على تجارةٍ تُنجيكُم مِّنْ عذاب أليمٍ . تُؤْمنون باللَّهِ ورسولِهِ وتُجَاهدونَ فى سبيلِ اللَّهِ بأموالِكمْ وأنفُسِكُمْ ذَلكُمْ خير لَّكُمْ إن كنتُمْ تعلمُونَ﴾

[الصف : ١٠ - ١١]

وعن أبى داود بإسناد صحيح . عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم» أخرجه النسائى .

• والحكمة في ذكر الأموال قبل الأنفس هو أن الجهاد بالمال قد يكون أشد ضرورة وحاجة من الجهاد بالنفس ، لأن الجهاد بالمال أمر لابد منه في تزويد الجيش بمطالبه ، وهو كذلك أمر لا حدود له إذا ما قورن بالجهاد بالنفس ، إذ أنه يمكن الاكتفاء من الرجال بالعدد الكفيل بالتغلب على العدو ، كأن يكون جيش المسلمين ضعف جيش العدو أو ثلاثة أضعافه ، أما المال فلا حدود لطلبه لأن الحرب تحتاج إلى مال غير محدود ، وبذلك يمكن للإنسان أن يشارك في الجهاد بماله إذا لم يجاهد بنفسه»[1] .

ووجه آخر من الحكمة في ذكر الأموال قبل الأنفس ، هو أن غير القادرين على الجهاد بالنفس لعذر من الأعذار كالضعف أو المرض أو بسبب بعدهم عن مكان المواجهة مع العدو ، عليهم أن يساهموا في المعركة بالمال (أو ما يقوم مقامه من الناحية الاقتصادية كالطعام والوقود وغيرهما) بقدر استطاعتهم وبذلك يستفيدون من هذا الإسهام المستطاع مثوبة عند الله تعالى ، ويكونون راضين عن أنفسهم .

• كذلك فإن الجهاد بالمال يحقق الرهبة في قلب العدو من قوة المسلمين ، ذلك لأن المال وهو يعبر عن القوة الاقتصادية ، هو عصب الحرب كما يقول العسكريون ، فإذا رأى العدو أنه سوف يواجه من قبل المسلمين بقوة عسكرية تساندها قوة اقتصادية لا ينضب معينها ، فسوف لا يستهين بالمسلمين ولا يعلق أمله على التغلب عليهم .

---

(١) لاشك في أن المجاهد بنفسه وماله معًا في طليعة المقربين إلى الله أكثر من المجاهد بأحدهما فقط «ولكل درجات مما عملوا» .

وهكذا يشكل الجهاد بالمال ركنًا قويًا من أركان استراتيجية الردع الإسلامية ومن أجل هذا أجاز الإسلام لولى الأمر أن يأخذ من أموال الناس فى زمن الحرب ما تدعو الحاجة إليه .

ه والجهاد بالمال كالجهاد بالنفس يكون وقت الحاجة والضيق أفضل منه في الأوقات الأخرى ، كما بين الله تعالى ذلك فيمن أنفق وقاتل قبل فتح مكة ، حين كان الإسلام فى أول أمره فى حاجة إلى المساعدة والمعونة ، وكيف أن الله تعالى أعلى مرتبتهم ، ورفع درجتهم عن الذين أنفقوا بعد الفتح وقاتلوا ، مع أن الله وعد الجميع الحسنى على أصل البذل والجهاد ، لما فيه من النفع والفائدة وما لفاعلها من الأجر والثواب ، قال عز وجل :

﴿وَمَالكُمْ ألاَّ تُنفِقُوا فى سبيلِ الله ولله ميراثُ السَّموات والأرضِ لا يَسْتَوى مِنكُم مَّنْ أنفقَ من قبلِ الفَتْح وقَاتَلَ ، أولئكَ أعظمُ درجةً مِّنَ الَّذينَ أنفقُوا من بعدُ وقاتلُوا ، وكلاً وعد اللَّهُ الحسْنَى﴾

[الحديد : ١٠]

ه والأحاديث الواردة فى فضل الجهاد بالمال وعظيم أجره وثوابه عديدة نذكر منها :

١ – عن زيد بن خالد الجهنى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «من جهز غازيا فقد غزا ومن خلف غازيا فى سبيل الله فقد غزا» رواه الترمذى والبخارى ومسلم .

٢ – وعن خريم بن فاتك قال : قال رسول الله ﷺ : «من أنفق نفقة فى سبيل الله تعالى كتبت له بسبعمائة ضعف» رواه الترمذى وحسنه والنسائى .

٣ – وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من احتبس فرسا فى سبيل الله إيمانا بالله وتصديقا بوعده ، فإن شبعه وريه وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامة» رواه البخارى (ومثل الفرس كل عدة من عدد الحرب التى تختلف باختلاف العصور والأزمان) .

٤ – وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : «من أنفق زوجين من شىء من الأشياء فى سبيل الله ، نودى من أبواب الجنة كلها : يا عبد الله هَلُم» (أى أن كل أبواب الجنة تنادى عليه ليدخل وهذا زيادة فى التكريم) رواه البخارى .

• ولقد أنفق المسلمون الأولون أموالهم فى سبيل الله : مات الرسول ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودى فى ثلاثين صاعًا من شعير ، وأنفق أبو بكر جميع ماله فى سبيل الله ، وكان يوم أسلم من أغنياء قريش المعدودين ، وأنفق عمر بن الخطاب نصف ماله ، كما جهز عثمان بن عفان جيش العسرة فى غزوة تبوك بالإضافة إلى الأموال الطائلة التى أنفقها على غيرها من الغزوات .

أما آل محمد ﷺ ، فقد روى الحسن عنهم قال : خطب رسول الله ﷺ فقال : «والله ما أمسى فى آل محمد صاع من طعام وإنها

لتسعة أبيات» . و«الله ما قالها استقلالا ، ولكن أراد أن تتآسى به أمته» .

• هذا ، وفى إطار الارتباط الوثيق الذى قرره الإسلام بين الاستراتيجية العسكرية والاقتصادية ، وانطلاقًا من تكليف الأمة الإسلامية بالجهاد بالمال مع الجهاد بالنفس ، فإنه يمكن استخلاص الأركان التى يقوم عليها اقتصاد الحرب فى الإسلام كما يلى:

١ - مبدأ التخطيط الاقتصادى :

وهو يحقق أفضل النتائج ، لأنه من أفضل الوسائل العملية للربط بين الاستراتيجية والاقتصاد بحيث يمكن استخدام الموارد الإنتاجية للأمة بسرعة وفاعلية وقت الحرب ، فإن مقتضى التكليف بالجهاد بالمال ، أن يكون المال مال الأمة وهى تحارب لدفع العدوان ، ومن ثم فإن التخطيط الاقتصادى يكفل توجيه المال نحو الأهداف المنشودة لصالح الدفاع عن الأمة وأمنها ، بعيدًا عن أشكال الاحتكار أو الصراع على الأرباح أو غيرها مما يعيق اندفاع عجلة التنظيم الاقتصادى.

٢ - التعبئة الاقتصادية فريضة وتكليف :

إن التكليف بالجهاد ، هو تكليف بالجهاد بالأموال والأنفس ، وعلى هذا الأساس فإن المؤمنين يستجيبون لنفير الجهاد «بأموالهم وأنفسهم» ، ولا يستأذنون فيما هو فريضة وتكليف كما يفهم من قوله الله تعالى :

﴿لاَيَسْتأذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمنونَ باللّهِ واليَوْم الآخِرِ أن يُجاهِدُوا بأموالهمْ وأنفُسِهمْ واللّهِ عليمٌ بالمتَّقِينَ ، إنما يَسْتأذنُكَ الَّذينَ لاَ يُؤْمنونَ باللّهِ والْيوم الآخر وارْتَابَتْ قلوبُهُمْ فَهُمْ فى رَيْبهمْ يترَدَّدُونَ﴾

[التوبة ٤٤ : ٤٥]

وبهذا المفهوم أيضًا فإن تكاليف المعركة لا تحتمل أن تأخذ صفة الهبات أو التبرعات أو التراحم بل هى «تكافل عام» مفروض على أبناء الأمة الإسلامية جميعًا .

٣ - التكامل الاقتصادى للأمة الإسلامية :

ولابد أن يقوم النظام الاقتصادى للأمة الإسلامية على أساس التكامل ، لأن التكامل يحقق لها الاكتفاء الذاتى ، وهو مطلب حيوى لبناء القوة وخاصة فى ظروف الحرب ، لأنه لا يضع الأمة الإسلامية تحت رحمة الاحتكارات الدولية أو تقلبات السياسة والمصالح العالمية ، ولأنه هو الضمان الأكيد لفاعلية القوة واستمرارها وتطورها .

٤ - العمل ومضاعفة الإنتاج :

من العناصر الرئيسية للبنيان الاقتصادى العمل والإنتاج ، لكن أهمية هذين العنصرين تزيد وتتضاعف فى أوقات الشدة والحروب ، حيث تصبح مضاعفة الإنتاج من الضرورات الحيوية التى تفرضها المعركة .

ومن الطبيعى أن متطلبات القوات المسلحة من المؤن والذخائر والأسلحة

والوقود وغيرها تزيد وقت الحرب ، ثم إنها لا تحتمل التأجيل أو التعرض للأزمات أو الاختناقات ، الأمر الذى يستدعى تخزين كميات كبيرة من مختلف السلع والمواد اللازمة للقوات المسلحة أو الشعب عامة ، وذلك لمواجهة الأزمات التى تحدث عادة فى الحرب نتيجة لما تتعرض له أدوات الإنتاج كالمصانع والمنشئات الاقتصادية والمستودعات ووسائل النقل والمواصلات من الإصابة والتدمير .

ثم إنه فى وقت الحرب وبمقتضى إعلان النفير العام (التعبئة العامة) فإن كثيرًا من العاملين فى المصانع والمزارع وغيرها من مصادر الإنتاج يطلبون للقتال ، فيصبح من الضرورى أن تظل هذه المصادر محتفظة بطاقاتها الإنتاجية كما كانت عليه قبل النفير ، ويتحقق لها ذلك بالتدريب الجيد للعمال الجدد لكى يسدوا الفراغ ، وبرفع كفاءة جميع العاملين ليتقنوا العمل ويضاعفوا الإنتاج إلى غير ذلك من التدابير .

ومن أجل تعبئة هذه القوى والقدرات يوجه الإسلام إلى الإخلاص فى العمل وإتقانه كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾

[الكهف - ٧]

وفى قوله جل شأنه : ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

[التوبة - ١٠٥]

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ إنَّا لاَ نُضِيعُ أجْرَ مَنْ أحسنَ عَمَلاً﴾

[الكهف - ٣٠]

وقد قال الرسول ﷺ :

«إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه» (رواه أبو يعلى)

وأشاد ﷺ برجل رآه يضرب اللبن فى بناء المسجد النبوى بأحسن مما كان يضربه أخوه فقال له : «الزم هذا فإنى أراك تحسنه ورحم الله امرأ أحسن من صنعته» .

وقال ﷺ لمعاذ وقد وجد فى يده خشونة من العمل : «يد لن تمسها النار» وكررها .

كذلك يوجه الإسلام إلى التخطيط العلمى الذى هو أساس إتقان العمل وزيادة الإنتاج والاستعداد لمواجهة الأزمات ، وهو ما يفهم من قول الله تعالى : ﴿قال تَزْرعُون سَبْعَ سِنين دَأَبًا فما حَصدتُم فَذَرُوهُ فى سُنبلهِ إلاَّ قليلاً مما تَأْكُلونَ ، ثم يَأْتِى من بعدِ ذلكَ سَبْعُ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ ما قدمتمْ لَهُنَّ إلا قليلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ، ثم يأتى من بعد ذلك عَامٌ فيه يُغَاثُ النَّاسُ ، وفيه يَعْصِرونَ﴾

[يوسف : ٤٧ - ٤٩]

وقوله جل شأنه : ﴿ولَمَّا بلغَ أشُدَّهُ واستَوى آتَيْنَاهُ حُكمًا وعِلمًا وكذلك نَجْزِى المحسِنينَ﴾

[القصص : ١٤]

٥ - ضبط الاستهلاك ومحاربة الإسراف :

وذلك من الأمور التى يوجه إليها الإسلام لكى يتوفر للأمة فائض من الإنتاج يمكنها من مواجهة الأزمات ويجنبها آثار الحصار الاقتصادى أو الاحتكارات العالمية وقت الحرب . يقول الله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾

[الإسراء : ٢٧]

﴿يَابَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾

[الأعراف : ٣١]

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾

[الإسراء : ٢٩]

وقال تبارك وتعالى فى صفات عباد الرحمن : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾

[الفرقان : ٦٧] .

ويقول الرسول ﷺ :

«ما عال من اقتصد» أى ما افتقر من لا يسرف فى الإنفاق ولا يقتر .

«الاقتصاد نصف المعيشة» (رواه البيهقى والطبرانى عن ابن عمر رضى الله عنهما)

- «إن اللّه تعالى يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا : فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا ، وأن تعتصموا بحبل اللّه جميعًا ولا تفرقوا ، ويكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال» (رواه مسلم عن أبى هريرة) .

- «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا فى غير إسراف ولا مخيلة» .

٦ - تحريم الاحتكار واستغلال ظروف الحرب :

ويحرم الإسلام احتكار الأقوات واستغلال ظروف الشدة والحرب لتحقيق الأرباح الطائلة برفع الأسعار والغش فى المعاملات ، ويصف الله التجار الأمناء الذين يقومون بواجبهم نحو الله والناس ولا تشغلهم أعمالهم عن الله فيقول : ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

[النور : ٣٧ - ٣٨]

ويقول الرسول ﷺ:

- «التاجر الصديق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء»

- «الجالب مرزوق ، والمحتكر ملعون» (رواه ابن ماجة والحاكم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه)

- «من احتكر طعامًا أربعين يومًا فقد برئ من الله وبرئ الله منه» (رواه أحمد)

- وفى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ مر على صبرة[1] طعام فأدخل يده فيها ، فنالت أصابعه بللاً . فقال : ما هذا يا صاحب الطعام ؟ قال : أصابته السماء يا رسول الله . قال : أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ؟ . من غشنا فليس منا .

- وخرج الرسول ﷺ يومًا إلى السوق فرأى الناس يتساومون ويتبايعون ، فقال : «يا معشر التجار .. يا معشر التجار» فرفعوا أعناقهم واستجابوا وأنصتوا ، فقال : «إن التجار يبعثون يوم القيامة فجارًا إلا من اتقى الله وبرَّ وصدق».

---

(١) الصبرة بضم الصاد : الكومة من الطعام .

الصناعة الحربية وبناء الأساطيل

• من العلوم التى نوه القرآن الكريم بخطرها وأشاد بقيمة المهارة فيها ، الصناعات الحربية وجملة الفنون التى تحتاج إليها الأمة فى الدفاع عن حقوقها ووجودها . ولقد جعل القرآن العناية بالصناعة الحربية آية على صدق الإيمان وحسن الجهاد ، قال تعالى :

﴿وأَنزَلْنا الْحدِيدَ فِيه بأْسٌ شديدٌ ومَنَافِعُ للنَّاسِ ولِيَعْلمَ اللَّهُ من يَنْصُرُهُ ورسُلَهُ بالغيبِ إنَّ اللَّهَ قوىٌّ عزيزٌ﴾

[الحديد : ٢٥]

أى وخلقنا الحديد لتكون منه أسلحة القتال القوية التى تردع المعتدى وتقهره ، وفيه منافع للناس مثل مجال التنمية الاقتصادية والصناعية ، ﴿وليعلم الله من ينصره ورسُلَهُ بالغيب﴾ : أى إنما فعل ذلك ليراكم ناصرى دينه باستعمال السلاح لمجاهدة أعدائه وناصرى رسله وهم غائبون عنكم لا يبصرونكم ، وفى ختم الآية الكريمة بهذين الاسمين الجليلين (قوىٌّ عزيزٌ) : إشارة إلى أن الله يحب لعباده القوة والعزة ، وأن كل ما يوفر ذلك نظريًّا وتطبيقيًّا هو من وسائل التقرب إليه ومن دلائل تقواه جل شأنه .

• ولقد أثنى الله على عدد من أنبيائه الكرام وعباده الصالحين فذكر تفوقهم فى علوم الصناعة وجهودهم فى تطويع هذا التفوق لنصرة الحق ودعم جانبه ، فقال جل شأنه يصف داود :

﴿وألَنَّا له الحديدَ ، أنِ اعْملْ سَابغاتٍ وقدِّرْ فى السَّرْدِ﴾

[سبأ : ١٠ - ١١]

وإلانة الحديد هى المهارة فى إيجاد شتى الآلات منه ، والوصول بصناعاته إلى حد الإتقان دون إعياء أو قصور وذلك لحسن الخبرة وطول الدربة . وقد أمر الله داود «بتقدير السرد» ، أى كلفه بإحكام النسج للدروع السوابغ التى ينتجها حتى تخرج فى أعلى مستوى مستطاع ، وفى موضع آخر يصف داود بنوعين من العبادة والعلم : أولهما طول الذكر والتسبيح ، والآخر إجادة الصناعة الحربية . قال تعالى :

﴿وسَخَّرْنَا مع داودَ الجبَالَ يُسَبِّحنَ والطَّيْرَ وكُنَّا فَاعِلينَ ، وعَلَّمنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لتُحْصِنكُمْ مِنَ بَأْسِكُمْ فهلْ أنتُمْ شَاكِرونَ﴾

[الأنبياء ٧٩ ، ٨٠]

• وعباد الله الصالحون ، أثبت القرآن صلاحهم وهم يقومون بأعمال رائعة تدل على علم بالحياة وخبرة عميقة بشئونها ، فهذا ذو القرنين يقول للذين منوه بالمكافأة إذا بنى لهم سدًا يحميهم من أعدائهم : ﴿مَا مَكَّنى فيه رَبِّى خَيْرٌ ، فأَعِينُونِى بقوةٍ أَجْعَلْ بينكُمْ وبينهُمْ رَدْمًا﴾

[الكهف : ٩٥]

وهنا يظهر علم الرجل ببناء القلاع ، فيحول منطقة عمله إلى مصانع يصهر فيها النحاس وتغلى المواقد ويقطع الحديد وتمهد الأرض وتسوى جوانب الجبل ويؤدى الرجال الأتقياء واجبهم لله على هذا النحو الذى يحمى الضعاف ويصون الحق ويعلى شأن الإيمان :

﴿آتونى زُبَرَ الحديدِ حَتى إذَا سَاوَى بين الصَّدَفَين قال انْفُخُوا ، حَتى إذا جعلَهُ نارًا قال آتونى أُفْرِغْ عليه قِطْرًا . فما اسْطاعُوا أن يَظْهروهُ وما اسْتطاعُوا له نَقْبًا﴾

[الكهف : ٩٦:٩٧]

ه وقد أفتى العلماء باتفاق أن إقامة الحرف والصناعات فريضة على المجتمع كله يأثم بتركها ، وعلى الأفراد الصالحين لهذه الفنون بمواهبهم وقدراتهم أن يجوِّدوا فيها ، ويخدموا أمتهم ورسالتهم بها .

وصحيح أن العرب طلعوا على العالم بالإسلام وكان الناس فقراء إلى العلم به ، لكن العرب ما كان عليهم من حرج أن يتعلموا من الناس أنواع الخبرة التى لم تهدهم إليها مطالب الصحراء ومجامع البادية .

وقد مهروا فيما وقفوا عليه ، واستغلوه فى نشر الإسلام وحرب أعدائه ، ومن أبرز الأدلة على ذلك أنهم صنعوا السفن الحربية وأتقنوا قيادة الأساطيل وحرب البحار .. يقول ابن خلدون :

«كان الروم مهرة فى ركوب البحر والحرب فى أساطيله ، ولم يكن العرب أول الأمر مهرة فى ركوبه ، فلما استقر الملك لهم وشمخ سلطانهم

صارت أمم العجم تحت أيديهم وتقرب كل ذى صنعة إليهم بمبلغ صناعته ، فاستخدموا فى حاجتهم البحرية كثيرًا من هؤلاء وأنشئوا السفن وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح ، وأسسوا دارًا لصناعة الآلات البحرية بتونس ، ومنها كان فتح صقلية أيام زيادة الله ابن الأغلب على يد أسد بن الفرات شيخ الفتيا»

• ومن أعظم الأمجاد التى يسجلها التاريخ الحربى للعسكرية الإسلامية أن الأساطيل الإسلامية استطاعت أن تقهر أعظم الأساطيل البحرية فى زمنها (أسطول بيزنطة) وأن تزيل عن البحر الأبيض المتوسط تلك الصفة التى لصقت به طويلاً وهى (بحر الروم) حتى أصبح يستحق أن يدعى (بحر المسلمين) ، يقول ابن خلدون :

«إن المسلمين تغلبوا على لجة بحر الروم ، وإن أساطيلهم سارت فيه جائية وذاهبة من صقلية إلى تونس ، والرومان والصقالية والفرنجة جميعًا تهرب أساطيلهم أمام البحرية العربية ، ولا تحاول الدنو (الاقتراب) من أساطيل المسلمين التى ضربت عليهم كضراء الأسد على فريسته» (ضرى بفتح الضاد وكسر الراء عليه: أى لزمه أو أولع به) .

• ولو تأملنا التوجيه القرآنى حول الحديد فسوف نراه يوحى بالطريق الذى على الأمة أن تسلكه لكى يكون لديها صناعة حربية حقيقية تنتج لها الأسلحة القوية التى تحقق الاستراتيجية الإسلامية فى الردع وإخافة الأعداء من عاقبة عدوانهم ، فنستطيع استخلاص المبادئ التالية للوصول إلى تلك الغاية :

١ - إقامة البنيان الاقتصادى على «الصناعة» أساسًا ، لأن الزراعة وحدها - كما هو معروف لدى رجال الاقتصاد - لا تستطيع تحقيق التنمية الاقتصادية أو بناء قوة الأمة وتقدمها .

٢ - إقامة «الصناعة الثقيلة» وعدم الاكتفاء أو الوقوف عند حدود الصناعة الخفيفة ، لأن أسلحة القتال كالمدافع والدبابات والطائرات والصواريخ والسفن الحربية لاتنتجها إلا «الصناعة الثقيلة» .

٣ - إقامة «صناعة الحديد والصلب» التى هى الأساس الذى تقوم عليه «الصناعة الثقيلة» .

ذلك هو المدخل الصحيح لبناء القوة الحقيقية فى السلاح والمعدات ، ونستطيع أن نستوحى معالم هذه القوة من الآية الكريمة حول الحديد :

(أ) فهو أساس القوة الحربية فى مجال الحرب ﴿فيه بأس شديد﴾

(ب) وهو أساس التنمية الاقتصادية وتقدم الأمة عامة ﴿ومنافع للناس﴾ .

• وكما عنى الإسلام بأمر الصناعة الحربية ، فإنه عنى أيضًا بالإنتاج الحربى الذى تخرجه المصانع الحربية ، فحث المسلمين على المحافظة على الأسلحة وعلى العناية بها وملاحظة صيانتها ونظافتها ، حتى تكون صالحة دائمًا للعمل على أعلى مستوى من الكفاية .

فالمؤمن الحق يقوم بهذا العمل وفاء بالأمانة التى فى عنقه والتى يأمره دينه أن يؤديها وأن يصونها :

١ - فالسلاح .. يعد من «أدوات القوة» التى أمر الله بإعدادها لإرهاب العدو .

٢ - والسلاح يعد أيضا «من أدوات الجهاد فى سبيل الله وهو الوظيفة الشريفة التى كرمه الله بأن اختاره لها ﴿وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم﴾ .

٣ - وهو يحس بعواقب إهمال هذا الواجب ، وبخطر الغفلة عن أسلحته وصيانتها والمحافظة عليها كما أخبر الله تعالى فى قوله : ﴿وَدَّ الَّذينَ كَفروا لو تَغْفُلُونَ عن أسْلحتكُمْ وأمْتعَتكُمْ فَيميلُون عليكم مَيْلةً واحِدةً﴾

[النساء : ١٠٢]

ولنا فى رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة ، فقد كان يناول ابنته فاطمة سيفه ويقول :

«اغسلى عن هذا دمه يابنية ، فوالله لقد صدقنى اليوم»

وناولها على بن أبى طالب سيفه وقال : «وهذا أيضا فاغسلى عنه دمه ، فوالله لقد صدقنى اليوم» .

* والجدير بالذكر أن من المبادئ المعروفة فى الاستراتيجية العسكرية أن تنظيم الجيوش وتسليحها ، وأساليب قتالها واستراتيجيتها تعتمد أولاً وقبل كل شىء على مستوى تطور الصناعة وطرق المواصلات والتقدم العلمى والتقنى (التكنولوجى) .

ويعرف الاستراتيجيون جميعًا قيمة الحديد والصلب وأثرهما البالغ على الاستراتيجية العسكرية ، فلقد تأثرت الاستراتيجية تأثرًا بالغًا بإنشاء السكك الحديدية على نطاق واسع ، إذ أدى ذلك إلى زيادة كبيرة فى حجم النقل وإلى تسهيل مهمة نقل القوات العسكرية ، وأصبح فى الإمكان حشد الجيوش فى ميادين القتال بسرعة وكثافة ، كما زادت قدرة القيادات على إجراء المناورات الاستراتيجية[1] بالقوات .

وبفضل الحديد والصلب والتطور المستمر فى صناعاتهما تطورت صناعة الأسلحة ، ولم تؤد هذه التطورات إلى حل المشكلات التكتيكية فحسب بل أدت إلى حل المشكلات الاستراتيجية ومشكلات إدارة الحرب عامة.

---

(١) يطلق هذا اللفظ على عملية تحريك القوات فى المعركة من مكان إلى مكان آخر بقصد تهيئة ظروف أفضل لصالح المعركة .. والمناورة بالقوات تسمى «مناورة استراتيجية» إذا تمت على مستوى عال وبقوات كبيرة وعلى مسافات أو مساحات واسعة ، وتسمى «مناورة تكتيكية» إذا تمت على نطاق محلى ومحدود من حيث القوة والمسافة ..الخ .

القيادة العلمية للجيوش الإسلامية

• **الهدف الأسمى للقيادة العسكرية** : يقرر العلم العسكرى أنّ الهدف الأسمى للقيادة العسكرية هو «الحصول على النصر فى الحرب بدون أو بأقل خسائر ممكنة فى الأرواح والمعدات وفى أقل وقت» . ومن ذلك يتضح أن القيادة العسكرية تسعى بكل ما لديها من فكر ووسائل إلى تحقيق النصر بلا خسائر على الإطلاق وتلك أعلى مرتبة من مراتب تحقيق الأهداف ، فإذا لم يتيسر لها ذلك فليكن النصر بأقل قدر ممكن من التكاليف أو الخسائر فى الأرواح والمعدات وفى أقل وقت .

وعلى هذا الأساس لا يعد نصرًا حقيقيًّا بالمقياس العلمى ذلك النوع من النصر الذى يدفع فيه الجيش ثمنًا أكبر من اللازم من الأرواح أو المعدات أو يستنفذ فيه وقتًا أطول من اللازم . ويقرر العلم العسكرى أيضًا أن اقتناء الجيوش لأقوى الأسلحة وأحدثها مع الشجاعة والكفاءة فى رجالها ، لا يكفى لكى تحقق فى الحرب هدف النصر بالمقياس العلمى الذى أوضحناه ما لم يتوافر لهذه الجيوش «أقصى درجات التنظيم وأقصى درجات الكفاءة فى الإدارة» .

• **والحق أن الكفاءة فى «الإدارة»** : عنصر حيوى بالغ الأهمية عظيم الأثر ، فالجيش بتكوينه من قوة بشرية وأسلحة ومعدات قتال كأنه آلة

لا تعمل وحدها ، بل تحتاج إلى من يديرها ، فإذا لم تتوافر الكفاءة فيمن يقوم بعملية الإدارة فإن الآلة لن تؤدى مهمتها بالدرجة المرجوة .. لذلك فإن الإدارة السليمة عنصر حيوى لحسن الأداء وللوصول إلى النتائج المرجوة بنجاح وكفاية . فلو تقابل جيشان فى موقعة ، وكان هناك تعادل بينهما فى قوة الرجال والسلاح ماديًّا ومعنويًّا ، فإن العامل الذى سوف يحسم الموقف ويرجح كفة أحدهما على الآخر هو «الإدارة السليمة» وهذا ما عبر عنه روبرت ماكنمارا وزير الحربية الاسبق للولايات المتحدة . حين قال فى مجال الصراع بينهم وبين الاتحاد السوفيتى إن الولايات المتحدة تمتلك تكنولوجيا عالية جدًّا ، وكذلك الاتحاد السوفيتى ، ولكن الذى سوف يحسم المعركة هو الإدارة السليمة .

* **عناصر الإدارة** : والإدارة عملية خلاقة تتطلب قدرات ومهارات قيادية لتوجيه الطاقات البشرية والمادية نحو تحقيق الأهداف بأعلى قدر من الكفاية وبأقل قدر من الخسائر أو التكاليف .

وبذلك فهى عملية اجتماعية وإنسانية من جهة ، واقتصادية وسياسية من جهة أخرى ، وهى تتطلب فى الإدارة الحسنة أن تصبح عملية رشيدة وحاذقة تستطيع أن تستخرج وتستغل فى القوة البشرية وفى المعدات أقصى مالديها من طاقات مادية ومعنوية فتحقق بذلك أعظم النتائج .

وبدهى أنه إذا كانت الإدارة عملية ضرورية فى مجالات العمل والنشاط المختلفة ، فهى فى مجال الصراع المسلح الذى تحيطه الصعوبات والتعقيدات والمتغيرات من كل جانب عملية أشد ضرورة .

وتعرف الإدارة بأنها «هى النشاط الذى يخطط وينظم ويراقب العمليات التى يؤديها الأفراد والمواد والآلات ورأس المال ، وهى توفر التوجيه والتنسيق والإشراف للعمل الإنسانى لمساعدته على تحقيق الأهداف العامة» .

• من ذلك نستخلص أن عملية الإدارة تشتمل على العناصر الأساسية الآتية :

العنصر الأول : هدف يراد تحقيقه .

العنصر الثانى : إجراءات أو أنشطة يمكن استخدامها لتحقيق ذلك الهدف .

العنصر الثالث : جهد بشرى يعتمد على عدد من الموارد والإمكانيات المادية فى أداء الأنشطة المحققة للهدف .

ولعل أهم ما يستبين من هذا التحليل هو أن محور العملية الإدارية هو «العنصر البشرى» ، وأنه لابد من تحقيق التعاون بين الأفراد والتنسيق بين جهودهم المختلفة وهذه الحقيقة هى التى تضفى على الإدارة طابعًا خاصًّا باعتبارها عملية اجتماعية وإنسانية من ناحية واقتصادية وسياسية من ناحية أخرى كما قدمنا .

ولكى تحقق الإدارة الأهداف بأعلى قدر من الكفاءة فهى تتبع إجراءات وتمارس أنشطة إدارية تنطوى على أعمال مادية وفكرية يطلق عليها «العملية الإدارية» وأهم عناصر تلك العملية الإدارية مايلى :

التخطيط – التنظيم والتنسيق – وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب – اتخاذ القرارات – الرقابة .

• وتعاليم الإسلام التى جاءت بكل ما يصلح به حال المجتمع الإنسانى من مناهج ، تناولت الإدارة وعناصرها على أكمل وجه ، كما قدم الرسول القائد ﷺ أروع الأمثلة فى تطبيق مبادىء الإدارة السليمة فى كل المجالات السياسية والاجتماعية والعسكرية .

• أولا – التخطيط :

التخططيط أسلوب علمى وعملى للربط بين الأهداف والوسائل التى تستخدم لتحقيقها ، والتخطيط بهذا المفهوم هو النظر إلى المستقبل وإلى النتائج التى يرجى بلوغها ثم تحديد الوسائل والأساليب والأعمال التى يؤدى تنفيذها إلى بلوغ الغاية المرجوة ، وهكذا فإن التخطيط – كما يعرفه علماء الإدارة – هو فى حقيقته «عملية تنبؤ بما سيكون عليه المستقبل مع الاستعداد لهذا المستقبل» .

وطبقا للأصول العلمية لا تصبح الخطة سليمة إلا إذا مرت بمراحل معينة تبدأ بتحديد الهدف والحصول على الحقائق والمعلومات ثم استعراض طرق العمل الممكنة وتقدير المشكلات التى تعترضها وحساب الاحتمالات المختلفة ثم الوصول إلى القرار بشأن الطريق الواجب اتباعه .

وعملية التخطيط بهدا الوصف عملية عقلية يستخدم فيها الإنسان عقله الذى يعد من أعظم نعم الله سبحانه وتعالى عليه والذى ميزه به على سائر المخلوقات . والناس فى استخدامهم للعقل درجات ، فمنهم من

يقصر ذلك على تحصيل المعارف ، ومنهم من لا يكتفى بالتحصيل بل يضيف إليه الإنتاج العقلى ، ومنهم من لا يقنع بذلك بل يرقى إلى مستوى استخدام عقله فى التنبؤ وتقدير احتمالات المستقبل ، ليس على أساس الرجم بالغيب ولكن على أساس إمعان النظر فى الحقائق والمعطيات والملاحظة الموضوعية والإحاطة بكل أبعاد المشكلة والقدرة على التصور والاستنتاج المنطقى وبعد النظر .

وليس من شك فى أن الطائفة الأخيرة من الناس التى تستخدم العقل إلى أقصى طاقاته هى الطائفة الموفقة حقًا إلى التخطيط العلمى السليم الذى يكفل للعمل المقرر كل أسباب النجاح ، وهى أيضا الطائفة التى تقدم أكثر من غيرها أجل الأعمال لصلاح حال المجتمع الذى تعيش فيه .

• ولقد اهتم الإسلام بالتخطيط باعتباره مظهرًا من مظاهر العلم الذى كان نزول أول آية فى القرآن الكريم به أعظم دليل على تقدير الإسلام للعلم وأهله .

كما اهتم الإسلام بالعقل – ووظيفته التأمل والنظر والتفكير ، وهو أيضًا أداة التنبؤ – وجعله من أعظم مظاهر تكريم الخالق سبحانه وتعالى للإنسان وتفضيله على سائر المخلوقات كما يفهم من قوله عز جل :

﴿ولقد كَرمنَا بَنى آدمَ وحَملناهُمْ فى البَرِّ والْبحرِ ورزقنَاهُم مِّنَ الطَّيباتِ وفضَّلناهُمْ على كثيرٍ مِّمَّنْ خَلقنَا تَفضيلاً﴾

[الإسراء : ٧٠]

والتأمل والنظر والتفكير هي وظائف العقل الذى كرم الله تعالى الإنسان به ، ولذلك فقد دعا الإسلام إلى النظر والتفكير وعدَّ ذلك من جوهر العبادة كما يفهم من قوله تعالى : ﴿قُل انظُرُوا مَاذَا فى السَّموات والأرض﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة .

• ويندد الإسلام بالجمود الفكرى وإهمال التجديد والتطور وينعى على المقلدين الذين لا يفكرون إلا بعقول غيرهم ، ويجمدون على القديم المألوف ولو كان الجديد أهدى وأجدى لهم كما يفهم من قوله تعالى : ﴿وإذا قيل لَهُمْ اتَّبعُوا مَا أنزلَ اللَّهُ قالوُا بل نَتَّبعُ مَا ألفيْنا عليه آبَاءنَا أوَ لَوْ كان آبَاؤُهُمْ لا يَعْقلُونَ شيئًا ولا يَهتدونَ﴾

[البقرة : ١٧٠]

ورسول اللَّه ﷺ خير قدوة فى العمل بالعلم والتخطيط والسير على المنهج العلمى ، وكان كثيرًا ما يعوذ بربه من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها . فقد قال عليه الصلاة والسلام :

«اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها» .

وقال أيضا «كل علم وبال على صاحبه إلا من عمل به» .

وقال ﷺ «لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع : عمره فيم أفناه ،

وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه» .

كذلك فإن قوله ﷺ «اعمل عمل امرىء يظن أنه لن يموت أبدًا ، واحذر حذر امرئ يخشى أن يموت غدًا» (رواه البيهقى والديلمى عن ابن عمرو بن العاص) ، لا يوصى بضرورة التخطيط للمستقبل القريب فحسب بل «للمستقبل البعيد» أيضًا وهو أرقى درجات التخطيط .

* ويعلمنا النبى ﷺ أن إهمال التخطيط والتواكل والاستكانة وترك الحذر أمور ليست من الإسلام ، وأنه لابد من أن نخطط لكل أمر من أمورنا بالأسلوب العلمى دون أن نترك شيئًا للصدفة .

ولعل أبلغ دليل على ذلك أن سنته ﷺ جرت على التخطيط العلمى لكل عمل وفى كل مجال ، وهو رسول الله الذى كان يعلم أن الله ناصره وحافظه .

* ومن الأمثلة التى تساق فى هذا المجال ، التخطيط النبوى للهجرة من مكة إلى المدينة فهو مثل رائع ينطوى على كل أركان التخطيط العلمى . الذى لا يدع شيئًا لعوامل الصدفة .

– موعد الهجرة أخفاه تمامًا ولم يعلم به إلا أبو بكر وعلى وهو درس فى أهمية السرية والكتمان يؤكده قول الرسول «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان» .

– خرج فى الثلث الأخير من الليل إلى منزل أبى بكر ومنه خرج من فتحة فى ظهره .

- ترك فى منزله سيدنا عليًّا نائمًا فى فراشه مغطى بغطائه لخداع المراقبين المحاصرين للبيت فإذا ما نظروا إلى فراشه ظنوه راقدًا فيه فلا يبحثون عنه .

- لم يتجه فى سيره شمالاً وهو الاتجاه الطبيعى والمباشر من مكة إلى المدينة ولم يتجه غربًا سالكًا طريق الساحل بل اتجه جنوبًا بشرق وهو اتجاه لا يتصور الإنسان أن يلجأ إليه مهاجر يستهدف الشمال ولا يمكن أن يفكر فيه المشركون حينما يكتشفون الأمر فيسارعون إلى اللحاق به .

- لم يستمر فى السير طويلاً بل لجأ إلى غار ثور ليحقق مزيدًا من تضليل قريش فى حالة ما إذا بحثوا عنه فى كل اتجاه ؛ واختفاؤه السريع بهذه الصورة يحدث صدمة نفسية لهم توقعهم فى بلبلة وذهول وتشل تفكيرهم ، وتجعل تصرفاتهم عصبية بعيدة كل البعد عن التخطيط الواعى السليم .

- ولقد كان اختياره لمكان الاختباء غاية فى التفكير الفذ ، فقد اختاره مكانًا وعرًا ، وحتى الآن إذا ما أراد شاب قوى أن يصعد إلى مكان الغار وجد فى هذا صعوبة كبيرة ، هذا بينما كان الرسول مهاجرًا فى سن الثالثة والخمسين من عمره .

• كلف عبد الله بن أبى بكر بأن يقوم بدور رجل المخابرات فيتسمع على ما تقوله قريش فى مكة ثم يذهب ليلاً إلى الغار ليبلغ الرسول ، فالرسول بذلك لم يكن منقطعا عن أحوال أعدائه ، وهو يعلمنا بذلك أن

استمرار استطلاع أخبار العدو ضرورة حيوية تمكن من اتخاذ الإجراءات التي يستلزمها الموقف في الوقت المناسب مما يوفر للخطة الأصلية أسباب النجاح .

• وبالفكر العلمي العميق لم يفته أن عبد الله بن أبي بكر عند عودته إلى مكة كل ليلة سوف يترك آثار أقدامه على الأرض وقد يكتشفها المشركون ، لذلك فقد كان عامر بن فهيرة يرعى غنم أبي بكر نهارًا ولما يجن الليل ينتظر عبد الله بن أبي بكر حتى يخرج من الغار فيسير خلفه حتى تزيل الغنم آثاره .

• كانت أسماء بنت أبي بكر تحضر الطعام إلى الغار فكان لابد من توقيت دقيق بين الراعي وبين الذى ينقل الأخبار والذى يحضر الطعام .

• بعد مرور ثلاثة أيام خرج الرسول من الغار ومعه أبو بكر واستمر في السير جنوبًا ثم غربًا إلى الشاطئ ثم شمالاً بحذاء الساحل وهو طريق غير مألوف إلى المدينة ولاشك أن اختباء الرسول ثلاثة أيام في الغار يضاعف من الضغط النفسي على قريش حتى يدب اليأس في قلوبهم وتفتر عزائمهم في البحث عنه .

• كان دليل الرسول وصاحبه في الهجرة إلى المدينة عبد الله بن أريقط رغم أنه لم يكن مسلمًا وهو الذى أعد الرواحل التي سافروا عليها .

وهذا الفعل غاية في التمويه على الأعداء ، فالذى يتصور أن يتجه النظر إلى صحابي محل ثقة النبي ﷺ وأما أن يكون المسئول عن الرواحل والدليل في الرحلة والشريك في هذا السر الكبير الذى

أخفاه الرسول عن المسلمين «غير مسلم» فهذا آخر ما كان يمكن أن يرد على ذهن قريش .

• حتى أمر الاتصال بعبد الله بن أريقط فى شأن الرواحل خضع لتفكير دقيق فإذا ما اتصل به عبد الله بن أبى بكر فقد تستريب قريش ، وكذلك إذا ما حدثته أسماء ، ولكن إذا ما اتصل به عامر بن فهيرة ، وهو راع مثله ومن طبيعة الراعى أن يتحرك ليقابل راعيًا ، فليس فى الأمر أية ريبة .

• وطوال الرحلة كان الرسول وصاحبه يسيران على سفينة الصحراء الليل كله وينيخان بالنهار للراحة .

• كل ذلك ينهض دليلاً على التخطيط المحكم الذى أعد لكل أمر عدته حتى تتحقق المهمة بنجاح تام .

• يعلمنا الرسول أيضًا فى مجال الإدارة مبدأ تقسيم العمل ، بحيث تخصص المهمة لكل فرد فى الجماعة حسب قدراته وإمكانياته الشخصية ، فقد كان لكل فرد ساهم فى عملية الهجرة دور محدد :

على بن أبى طالب له دور ، وعبد الله وأسماء لهما مهمة ، وكذلك عامر وعبد الله بن أريقط .

• ويعلمنا الرسول أيضًا مبدأ التنسيق حسب أحدث الأصول العلمية فلا يقتصر فى التخطيط على تقسيم العمل وتوزيعه ، بل يجب أن ينسق بين مختلف القائمين بالعمل ، ويكون التنسيق فى المكان والزمان وبذلك يخرج العمل منسجمًا ومتكاملاً ، وهكذا يضع لنا الرسول الكريم القاعدة

العلمية التى تقول بأنه بدون عملية التخطيط يصبح العمل بغير هدف واضح وغير منظم ، وبدون عملية التنسيق يكون العمل مبعثرًا مشتتًا غير منسجم.

* ثانيا - التنسيق :

من المسلم به أن أى جماعة لها هدف معين لا يمكنها أن تحقق ذلك الهدف إلا إذا توفر عنصر هام فى عملها ، ألا وهو التنسيق ، فإذا لم تعمل الجماعة فى تناسق تام وإذا لم تتضافر جهود أفرادها من أجل تحقيق الهدف فسوف لا تنجز الجماعة شيئًا يذكر . ولو أن باحثًا أراد الوقوف على أسباب العجز أو الفشل فى أداء المهام وتحقيق الأهداف لوجد على رأس هذه الأسباب اختفاء عنصر التنسيق أو ضعفه ، وكم من جهود وأموال تضيع هباء ، وكم من وقت يذهب سدى بسبب عدم التنسيق ، وكم من تضارب فى القرارات أو ازدواج فى الجهود يحدث بسبب غيبة التنسيق ، وكل هذه الأمور تشكل فى مفهوم علم الإدارة ، خسارة كبيرة ، ولا تؤدى إلى تحقيق الأهداف المقررة بالكفاية المرجوة .

ومن أجل ذلك فإن رجال الإدارة يعرفون التنسيق بأنه «هو الترتيب المنظم لجهود الجماعة للوصول إلى وحدة العمل من أجل تحقيق هدف معين» .

* ولو أردنا أن نتتبع أصول التعاون وجذوره - وهو لحمة التنسيق وسداه - فى الإسلام لوجدناه يرجع إلى بداية الخلق وإلى حكمة الله

تعالى فيه حيث يقول جلَّ شأنه : ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُم مِن ذكَرٍ وأُنثَى وجَعلنَاكُمْ شُعوبًا وقَبَائلَ لتِعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمكُمْ عند اللَّهِ أتقاكم﴾

[الحجرات : ١٣]

والله تعالى خلق الإنسان اجتماعيًا بطبعه وفى حاجة دائمة إلى من يشاركه حياته ، وإلى من يعينه على قضاء مطالبه ، ولولا هذا الشعور بحاجته إلى غيره ليعينه ويشد أزره ، لعجز عن البقاء يحمل وحده أعباء حياته وتصريف شئونه . وهكذا ينظم الإسلام العلاقة بين الناس على أساس من التعارف والتعاون والتنسيق وتبادل المنفعة ، كما يرشد إلى أن التعاون يكون فى سبيل الخير والبر والتقوى .

كما يفهم من قول الله سبحانه : ﴿وتَعاوَنُوا على الْبِرِّ والتَّقوى ولا تَعاونُوا على الإِثْمِ والعُدوانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّه شَدِيدُ الْعِقَاب﴾

[المائدة : ٢]

وقد حث رسول الله ﷺ على التعاون والتنسيق فى قوله .. «اللَّه فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه»

وقوله «خير الناس أنفعهم للناس»

وقوله ﷺ «يد الله مع الجماعة»

وينهى الإسلام عن الفرقة والتنازع في قوله تعالى : ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾

[الأنفال : ٤٦]

ولقد رأينا فى الهجرة كيف كان التنسيق على أجمل وجه .

* ثالثًا – وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب :

يعد وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب من أعظم مبادىء الإدارة السليمة ومن أهم أسباب النجاح فى إنجاز الأعمال وتحقيق الأهداف . ويقوم هذا المبدأ على أساس المواءمة بين متطلبات العمل وبين قدرات الفرد الذى سوف يشغل هذا العمل .

فإن قيام الفرد بالعمل الذى تناسبه استعداداته وقدراته وميوله ، يمكن من استغلال إمكانياته أفضل استغلال مما يرفع من مستوى الأداء ومن مستوى الكفاءة فى تحقيق الأهداف والنتائج المرجوة .

كما أن هناك عاملاً معنويًا يكمن فى تطبيق هذا المبدأ ، هو أن التوافق بين الفرد والعمل يحفظ للفرد «صحته النفسية» كما يقول علماء النفس لأن هذا التوافق سيوفر للفرد المناخ والفرصة لتحقيق ذاته فى ميدان العمل ، وتكيفه وتوافقه مع البيئة التى تحيط به ، وسلوكه بالطريقة التى تتفق مع فكرته عن نفسه ، وشعوره بالسعادة والرضا عن نفسه وعمله وغيره .

* ويوضح علماء النفس السر فى أهمية تطبيق مبدأ وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب وضرورته بعرض الحقيقتين العلميتين الآتيتين:

١ – الحقيقة الأولى :

إن هناك مايسمى «بالفروق الفردية» بين الناس ، وأنه من المتفق عليه أنه نادرًا ما يتشابه فردان فى جميع الوجوه إذ أن هناك مواضع متعددة

للاختلاف بين الأفراد تعود إلى الوراثة والبيئة ، فالأفراد يختلفون بعضهم عن بعض من حيث الصحة والاستعدادات والقدرات والميول والاتجاهات والشخصية والظروف الاجتماعية ، كما أن هناك فروقًا داخل الفرد نفسه هي مواطن الضعف ومواطن القوة فيه .

٢ – الحقيقة الثانية :

هي اختلاف المستلزمات والخصائص الجسمية والعقلية والاجتماعية التي تتطلبها الأعمال والمهن المختلفة في الفرد حتى يستطيع أداءها .

وهكذا يكون من الضروري مراعاة الفروق الفردية بين الناس ، والفروق في متطلبات الأعمال .. وهذا هو المدخل العلمي للمواءمة بين قدرات الفرد ومتطلبات العمل الذي يوكل إليه ، وبذلك يتحقق مبدأ وضع الرجل المناسب في المكان المناسب .

• ولقد عنى الإسلام بهذا المبدأ أكبر عناية : فقاعدة «التكليف بالوسع» التي جاء بها الإسلام في قوله تعالى : ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفسًا إلا وُسْعَهَا﴾

تقرر أن الله تعالى لا يكلف الإنسان بما فوق طاقته وقدرته واستعداده كما يلمح قول الرسول ﷺ «كلٌ ميسر لما خُلق له» (رواه البخاري) إلى المواءمة بين قدرات الفرد ومتطلبات العمل الذي يكلف به .

ويبلغ اهتمام الرسول القائد بهذا المبدأ إلى حد أنه يعد مخالفته غشًا لله ورسوله وللمسلمين كما يفهم من قوله ﷺ «أيما رجل استعمل رجلاً

على عشرة أنفس علم أن فى العشرة أفضل مِمَّن استعمل فقد غش الله وغش رسوله وغش جماعة المسلمين» (رواه أبو يعلى عن حذيفة)

• وقد كان رسول الله ﷺ خير من طبق مبدأ وضع الرجل المناسب في المكان المناسب ، وسجل عصر النبوة قدرته الفائقة وخبرته الواسعة ، وبصيرته النافذة فى معرفة النفوس والأخلاق والمواهب والقدرات ومعرفة ما يلائمها من المهام والأعمال وكذلك معرفة الوقت المناسب .

وهذا ما عبر عنه الأستاذ العقاد[1] حين قال وهو يتحدث عن عبقرية النبى ﷺ فى هذا المجال : «فمن علامات العظمة التى تحيى موات الأمم أن تختص بقدرتين لا تعهدان في غيرها ، أولاهما : أن تبتعث كوامن الحياة ودوافع العمل فى الأمة بأسرها وفى رجالها الصالحين لخدمتها ، والأخرى : أن تنفذ ببصيرتها إلى أعماق النفوس فتعرف بالبديهه الصائبة والوحى الصادق فيم تكون عظمة العظيم ، ولأى المواقف يصلح ، وبأى الأعمال يضطلع ومتى يحين أوانه ، وتجب ندبته (أى دعوته للعمل) ومتى ينبغى التريث (الانتظار والتمهل) فى أمره إلى حين» .

وقال أيضا عن اختيار الرسول لأبى بكر للخلافة من بعده :

«إن محمدًا عليه السلام قد عرف من هم رجاله وما هو الموقف الذى هم مقبلون عليه بعد وفاته ، فعرف الموضع الذى يضع فيه كلاً منهم والعمل الذى يتولاه خير ولاية فى ذلك الموضع» .

(١) عبقرية عمر – عباس محمود العقاد .

فلقد كان ﷺ يعرف فى أبى بكر الرفق والدعة واللين ، ويعرف فى عمر الشدة والقوة والصرامة ، فاختيار أبى بكر للخلافة بعده كان وضعًا له فى المكان الذى يناسبه لأن الإسلام كان فى حاجة إلى الرفق والدعة والتآلف من أبى بكر ، كما كان فى حاجة إلى الشدة والصرامة والقوة من عمر ، وقد ضمن النبى كل ذلك باستخلاف أبى بكر لأن شدة عمر ستكون مع أبى بكر معبأة حاضرة إذا احتاج إليها .

• وحينما أراد الرسول القائد أن يبعث بسرية من جند جيش الإسلام لاستطلاع أخبار قافلة قريش اختار لقيادتها عبد الله بن جحش لمعرفته بما لديه من خصائص وقدرات تقتضيها تلك المهمة عبر عنها ﷺ فى قوله «لأبعثن عليكم رجلاً أصبركم على الجوع والعطش» .

وعن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله ألا تستعملنى (أى تولينى عملاً عامًا) قال فضرب بيده على منكبى ، ثم قال : «يا أبا ذر ، إنك ضعيف وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا من أخذ بحقها وأدى الذى عليه فيها» .

• وفى غزوة أحد نظر الرسول فوجد خالد بن الوليد على ميمنة فرسان قريش وهو يعرف خالدًا جيدًا ، ويعرف أنه فارس ومقاتل من طراز فريد ، فأراد أن يكون قبالته من المسلمين من يستطيع أن يقف أمامه وقفة الند للند ، فاختار الزبير بن العوام وقال له : «استقبل خالد بن الوليد وكن بإزائه» .

وحينما رأى النبى أن يعين أحد المسلمين ليأتيه بأخبار المنافقين فى المدينة (أى لوظيفة ضابط مخابرات) اختار حذيفة بن اليمان العبسى دون غيره من أصحابه وذلك لأن حذيفة كان يتمتع بمزايا الكتمان الشديد فلا يفشى سره لأحد ، وبحضور البديهة فلا يرتبك فى المواقف الحرجة ، وبتقديره العميق لأهمية صيانة المعلومات عن الأعداء فلا يفشى نياته ونيات المسلمين وأهدافهم ، وبالذكاء الخارق وموهبة حب الاستطلاع . وهكذا يكون وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب على أساس المواءمة بين متطلبات العمل وقدرات الفرد .

* رابعًا : إتخاذ القرارات :

إن اتخاذ القرارات هو العنصر الأساسى فى القيادة والإدارة ، وهو جوهر عمل القادة فى كل الميادين ، فالقرار هو نقطة البداية والانطلاق لما يأتى بعده من أعمال وإجراءات وتصرفات تستهدف تحقيق النتائج المرجوة .

وعملية اتخاذ القرارات ليست بالمهمة اليسيرة لأنها فى حقيقتها عملية اختيار بين أفضل البدائل والسبل لتحقيق الهدف ، وهى فى نفس الوقت اختبار لمدى كفاية القادة وقدرتهم على تحمل المسئولية والبت فى الأمور .

وتزيد أهمية عملية اتخاذ القرارات وتعظم آثارها تبعا لجسامة المهام وحساسيتها وضخامة أهدافها .

• ومن أجل هذا فقد قرر الإسلام مبدأ الشورى وهو خير ضمان لأن تقوم قرارات الرؤساء والقادة المسلمين على قاعدة واسعة من الدراسة والفحص والجدل الفكرى .

يقول الله تعالى : ﴿وأمرهُمْ شورَى بَيْنهمْ﴾

ويأمر نبيه بأن يشاور أصحابه فى قوله تعالى : ﴿وشَاوِرهُمْ فى الأمر ، فإذا عَزمْتَ فتوكَّلْ على اللَّه﴾

وكان الرسول القائد ﷺ معنيًا بالشورى أكبر العناية ومما قاله فيها :

– «استعينوا على أموركم بالمشاورة» .

– «اثنان خير من واحد ، وثلاثة خير من اثنين ، وأربعة خير من ثلاثة ، فعليكم بالجماعة فإن الله لا يجمع أمته إلا على هدى» .

– «ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمرهم» .

• ولقد ضرب الرسول ﷺ أعظم الأمثلة للقائد الناجح فى تطبيق مبدأ الشورى ، فكان يستعين برأى أصحابه ويتقبل أفكارهم ويعرضها للبحث فإذا ثبتت وجاهتها قبلها وإلا ردها مع ذكر الأسباب .

ولم يكن ﷺ يصادر رأى أحد أو يحتقر وجهة نظره ، وذلك كله فيما لم ينزل فيه وحى أما إذا نزل وحى فلا اجتهاد معه ، وكثيرًا ما كان يقول لأصحابه «أشيروا على أيها الناس» .

وكان تخطيطه للمعارك والغزوات يقوم على أساس الشورى ليس فقط فى القضايا الاستراتيجية العليا مثل ، هل يخرج للقتال أم لا ، أو هل

يقاتل خارج المدينة أم داخلها ، بل إنه كان يأخذ بالمشورة الصالحة فى القضايا التكتيكية أيضًا .

• ففى غزوة بدر نزل على رأى الحباب بن المنذر حين أشار عليه بأن ينتقل من الموقع الذى اتخذه المسلمون بجوار ماء بدر إلى موقع آخر يتحكم تمامًا فى مياه البئر بحيث يقطع الماء عن قريش فى الوقت الذى ينعم فيه المسلمون بالماء الغزير وقال لحباب «أشرت بالرأى» وأمر المسلمين بالانتقال إلى حيث أشار الحباب .

وهكذا يقرر الرسول القائد أن الأخذ بالمشورة الصالحة آية من آيات حسن القيادة ، تقترن بآية الابتكار والإنشاء ، لأن القيادة الحسنة هى القيادة التى تستفيد من خبرة الخبير ، كما تستفيد من شجاعة الشجاع ، وهى التى تجند كل ما بين يديها من قوى الآراء والقلوب والأجسام .

• ويوجه الرسول القائد فى مجال اتخاذ القرار إلى الحسم واجتناب التخبط ، والتردد الذى يؤدى للفشل .

ففى أثناء التخطيط لغزوة أحد ، كان هناك رأى يقول بالبقاء فى المدينة ورأى آخر يقول بالخروج لقتال قريش عند أحد ، فرجحت كفة الداعين للخروج وبدأ الرسول يستعد للخروج للقتال ، إلا أن الذين دعوا للخروج ندموا وجاءوا إلى النبى يقولون «يا رسول الله استكرهناك ولم يكن لنا ذلك ، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك» فكان رد النبى حاسما قاطعًا حين

قال : «ما ينبغى لنبى إذا لبس لامته (درعه أو سلاحه) أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ، انظروا ما آمركم به فاتبعوه ، والنصر لكم ما صبرتم» .

وهكذا برهن الرسول على أن احترام المشورة أمر واجب ، وأنه مادام الرأى قد استقر على شيء فقد لزم السير عليه ووجب اتباعه.

* خامسا – الرقابة :

الرقابة من أهم عناصر الإدارة ، فلابد من مراقبة الأعمال التنفيذية ، وملاحظة القائمين بها للتأكد من أن الأداء يتم بالطريقة الصحيحة مع تصحيح الأخطاء فى الحال قبل أن يستفحل أمرها ، والتأكد أيضا من أن تلك الأعمال قد حققت أهدافها المقررة فى التخطيط .

وإهمال الرقابة يؤدى – فى مفهوم علم الإدارة – إلى خسارة كبيرة بسبب ما يقع من خلل وانحراف فى الأداء ، وما ينتج عن ذلك من عجز عن تحقيق الهدف المرجو .

والرقابة فى حقيقتها أمانة عظمى فى عنق كل مسئول رئيسًا كان أو مرءوسًا ، والمدرسة الإسلامية تطالب المسلم بأداء الأمانة وبالإخلاص فى العمل وتدخل الرقابة فى نطاق الوفاء بالعهد وتقدير المسئولية .

* وللرقابة فى الإسلام فلسفة لا تتسامى إليها نظريات علماء الإدارة ، فهى تبدأ بضمير الإنسان فالضمير الدينى للمسلم يدفعه

إلى أن يرعى الله فى عمله ، لأنه هو الرقيب المطلع ويصوره لنا الرسول الكريم فى العبادة بقوله «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك». (رواه البخارى)

وهكذا يتخذ المسلم من ضميره رقيبًا على عمله ، ويؤمن بأن الله تعالى هو الرقيب الأعظم ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾.

• والمدرسة الإسلامية بعد هذا ترشد المسلم إلى ضرورة قيامه بالرقابة على الأعمال التى تجرى فى نطاق مسئوليته بالإشراف والملاحظة والمتابعة للتأكد من سلامة التنفيذ ولتصحيح الأخطاء والاطمئنان إلى بلوغ النتائج المرجوة .

يقول النبى ﷺ «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» ويقول «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان» .

ومن هديه ﷺ فى مجال الرقابة على الأعمال أنه فى أثناء بناء المسجد النبوى أشاد برجل رآه يضرب اللبن بطريقة أفضل مما كان يضربه أخوه ، فقال له : «الزم هذا فإنى أراك تحسنه ورحم الله امرأً أحسن من صنعته» وفى غزوة بدر أشرف النبى بنفسه على تنظيم صفوف المسلمين وتعديلها للقتال ، فوجد رجلاً اسمه سواد خارجًا عن الصف فطعنه بعصا خشبية كانت فى يده وقال : «استو[1] يا سواد».

---

(١) لكى يستوى فى الصف .

التربية العسكرية فى الإسلام

• إذا ذكر موضوع التربية العسكرية ، اتجه فكر الكثيرين إلى القوات المسلحة ظنا منهم أن أمور الطاعة والانضباط والنظام وتحمل المشاق والشجاعة أمور خاصة بالقوات المسلحة وحدها وتتطلبها طبيعتها .

• لكن هذا الظن بعيد عن الصواب ، فالتربية العسكرية فى نظر الإسلام «أمر عام» يتعلق بالإنسان المسلم فى أى مجال من مجالات العمل سواء فى الحياة فى المدنية أو الحياة العسكرية ، وهذا مبدأ ينفرد به الإسلام ، فالإسلام لا ينتظر حتى يشب الفتى ويكبر ويدخل الجيش ، فيبدأ بغرس هذه القيم فيه ، بل إن الإسلام يبدأ فى ذلك منذ وقت مبكر جدًّا ، وهو مرحلة التنشئة وبناء الشخصية .

• ولعل إهمال هذا المبدأ هو مصدر ما نلمسه من شكوى الناس من ضعف الانضباط وسوء النظام فى بعض مجالات العمل المدنى إلى الحد الذى نجد معه من الناس من ينادى بأن تتولى القوات المسلحة بعض المهام المدنية على أساس أن ما تتمتع به من نظام وانضباط فى عملها يمكنها من إنجازها بسرعة وكفاءة .

• ويحاول المصلحون تنمية وعى الانضباط والطاعة والنظام فى المجتمع ، فلا يحرزون نتائج مرضية ، وسبب ذلك أنهم تأخروا فى دعوتهم

فبدءوا بها بعد فوات الأوان المناسب والذى يحقق التربية العسكرية للمسلم منذ نعومة أظفاره كما يدعو الإسلام .

• إن الإنسان إذا دخل مرحلة الشباب (بعد سن العشرين) دون أن تتم تربيته خلال مرحلتى الطفولة والمراهقة ، فقد فات الأوان ، ويصبح المطلوب حينئذ هو «العلاج» وليس التربية ، وفى ذلك يقول فضيلة الأستاذ الشيخ محمد متولى الشعراوى : «هناك مشكلة تتمثل فى أننا نقول «تربية الشباب» بينما يجب أن نقول «علاج الشباب» ، لأن هناك فارقا بين التربية التى تقى من الآفات ، والعلاج الذى يواجه الآفات ، فإذا كان الشباب فيه آفات ، فاعلم أن مرحلة من مراحل حياته قد مرت دون أن يربى» .

• وها هو ذا أحد القادة العسكريين المشهورين وهو الجنرال مارشال الأمريكى يقول فى كتابه . (الجنود فى مواجهة النيران) : «إذا رغبنا فى الحصول على الجندى الصالح للقتال فيجب أن تتجه أنظارنا إلى مهد الطفل عندما تنشئه أمه ليكون رجلاً ، وإلى المدرسة حيث يتعلم كيف يضحى بمصالحه الشخصية من أجل الوطن ، وفى أروقة الحكومة حيث ينبثق فى قلوب الشعب وعى صادق عن الواجب» .

فهذه شهادة قائد واسع الخبرة بشئون الحرب والقتال أدرك ما لمرحلة التنشئة وبناء الشخصية من أثر كبير فى تشكيل سلوك الأفراد فى القتال ، فوصل إلى ما يقترب به من المبدأ الذى قرره الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا .

• فالمسلم الذى يتربى على منهج الإسلام فى التربية وبناء الشخصية ، ينشأ منذ صغره على قيم الطاعة والانضباط والنظام وتحمل المسئولية ووعى الأمن وغيرها من محتويات التربية العسكرية ، ومثل هذه الشخصية تدخل الحياة بكل أنشطتها المدنية والعسكرية ، وهى تحمل فى وجدانها تلك السجايا ، فنستطيع أن نلمسها بوضوح فى سلوك العامل والصانع والمعلم والموظف والجندى والقائد وغيرهم فى كل مجالات الحياة .

منهج الإسلام :

• والحق أن الإسلام يقرر للتربية العسكرية خير المناهج على الإطلاق ، ويكفى أن نقارن حال العرب قبل الإسلام بحالهم بعد الإسلام ، ثم نبحث عن سر ذلك التحول العظيم ، الذى حدث للعرب بعد الإسلام فحققوا فتوحات إمتدت فى أقل من مائة عام من سيبريا شمالاً إلى المحيط الهندى جنوبًا ، ومن الصين شرقًا إلى شاطىء الأطلسى غربًا ، وليس ذلك فحسب بل أقاموا حضارة أضاءت الطريق للبشرية فى كل مجالات العلوم الطبيعية والاجتماعية .

• إن الإسلام عقيدةً وعملاً ، قد أوجد فى قلب العرب التربة الصالحة ، وخلق الاستعداد النفسى للغرس والتربية ، حتى أصبح العربى ليس فقط مضربًا للأمثال فى البطولة والفداء فى الحرب ، بل رائدًا فى كل مجالات الحضارة . وسوف نستعرض باختصار ما يتسع له المقام من عناصر التربية العسكرية فى الإسلام :

١ – العلم أساس القوة والرقى :

• ولقد اهتم الإسلام بالعلم اهتمامًا بالغًا ، ولا أدل على ذلك من أن أول آية من القرآن الكريم نزلت على قلب المصطفى ﷺ تتضمن «القراءة» التى هى مفتاح العلم ، و«القلم» الذى هو آلة العلم والمعرفة والتاريخ والحضارة ، وأنَّ الله هو الذى علم الإنسان كل شىء : ﴿اقْرأْ باسْم رَبِّكَ الَّذى خَلَقَ . خَلَقَ الإنسانَ من عَلَقٍ . اقْرَأْ وربُّك الأكرمُ . الَّذى علَّمَ بالقَلمِ . علَّمَ الإنسانَ ما لم يَعْلَمْ﴾

[العلق : ١ – ٥]

وقال تعالى : ﴿وقُلْ ربِّ زِدْنى عِلْمًا﴾

[طه: ١١٤]

٢ – الحرية والكرامة الإنسانية :

• وقرر الإسلام الحرية والكرامة الإنسانية ومقاومة العبودية لغير الله تعالى فى كل ميدان من الميادين ، فقرر مبدأ الحرية فى النفس والمال والعرض ، فنفس الإنسان فى الإسلام معصومة ، لا يجوز الاعتداء عليها أو النيل منها ، وكذلك مال الإنسان معصوم ، لا يؤخذ منه شىء إلا بحقه ، وكذلك عرض الإنسان لا يهان ولا يخدش والحديث يقول : «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه» (رواه ابن ماجة وأبو داود) .

• وقرر الإسلام مبدأ الحرية فى العبادة والاتصال بالله فليست هناك وساطة بين الله وعباده ، ولا يتوقف اتصال الله تعالى بعبد من عباده على

وساطة أحد بل إن الله سميع بصير ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ويعلم السر والنجوى ، وبابه الكريم مفتوح لكل لاجيء ولكل طالب ، يقول الله تعالى : ﴿وإذَا سألكَ عِبادِى عَنّى فإنّى قَرِيبٌ أُجيبُ دعوةَ الدَّاعِ إذَا دَعَانِ فَلْيستجيبُوا لى ولْيُؤْمِنُوا بِى لَعلَّهمْ يَرشُدونَ﴾

[البقرة : ١٨٦]

ه وقرر الإسلام أيضًا التحرر من أسباب الخوف ، فالذين اتصلوا بربهم وراقبوه وأخلصوا له العبادة والطاعة لا ينالهم هم ولا حزن ، يقول الله تعالى : ﴿فَمَنْ تبع هُدَاىَ فلا خوفٌ عليهمْ ولا هُمْ يَحزنُونَ﴾

[البقرة : ٣٨]

﴿ألاَ إنَّ أوْليَاءَ اللَّهِ لا خوفٌ عليهِمْ ولا هُمْ يحزنُونَ ، الَّذينَ آمَنُوا وكانوا يتقُونَ ، لهمُ البشْرَى فى الْحياةِ الدُّنيا وفى الآخِرةِ لاَ تبديلَ لِكلماتِ اللَّهِ ذلكَ هو الفوزُ العَظيمُ﴾

[يونس : ٦٢ - ٦٤]

وبذلك يكون الإسلام قد كرم الإنسان ، وكرم رأسه وجعله ذا نفس عالية ، ولا يذل إلا لخالقه مالك الملك ولا يخشى إلا إياه.

٣ - تربية النفس :

ه وقد أراد الله من المؤمنين أن يحققوا فى أنفسهم ما يجعلهم أهلا لمواجهة أقسى التحديات ، وللغلبة على أعدائهم من التربية العسكرية

والإقدام على التضحية وإتقان الجهاد والثبات في مواطن البأس ، والتمسك بمبادىء الفروسية الإسلامية التي لا يذل صاحبها ولا يخزى ، وهو في الوقت نفسه لا يضل ولا يطغى ، قال تعالى : ﴿يَأَيُّها النبى حَرِّضِ المؤْمنينَ على القتَالِ إن يكُن مّنكُمْ عشرونَ صابرونَ يَغْلبُوا مائتين وإن يكُن مّنكُمْ مّائةٌ يَغْلبُوا ألفًا من الذين كَفروا بأنَّهم قومٌ لا يفقهُونَ﴾

[الأنفال : ٦٥]

• كذلك حث الإسلام على «جهاد النفس» للنزعات والنقائص المعوقة كالغرور وحب الظهور وكل ما يفسد القلب ويُعل النفس من أمراض كالطمع والحقد والحسد والبغض ، ولذا نبه الرسول القائد ﷺ – عقب رجوعه من بعض الغزوات – على أهمية هذا السلاح في الانتصار والفتك بالأعداء واجتلاب مدد السماء ، ففي حديث جابر عن الخطيب أنه ﷺ قال بعد رجوعه من غزوة غزاها : «قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر : مجاهدة العبد هواه» . وفي حديث أبي ذر عن ابن النجار : «أفضل الجهاد أن تجاهد نفسك وهواك في ذات الله عز وجل» .

• حقا جهاد النفس هو الجهاد الأكبر وهو السبيل إلى النصر ، جهاد النفس للأمراض الخلقية والاجتماعية ولوساوس الشيطان وللشهوات والمغريات والكسل والفتور والضعف والعقبات ، كل هذا من وسائل النصر ودواعي التغلب ، وعوامل النجاح في «أى ميدان من الميادين».

٤ - الانضباط الذاتى :

• وعني الإسلام بتكوين الضمير الدينى للمسلم بحيث يندفع إلى أداء واجبه على أكمل وجه معتمدًا على قوة ذاتية داخل نفسه ، لا على قوة أو سلطة خارجية وهذا هو أرقى مراتب الانضباط ، وهو «الانضباط الذاتى» وفى هذا يقول نابليون بونا بارت : «إن المجتمع الذى لا يعتمد على قوة ذاتية ، ويتوقف العمل الجماعى فيه على قوة السلطة وعلى دقة المراقبة ، لا شك فى أنه يعتبر عبئًا على المجتمع ومضيعة لقواه» .

• لذلك فالضمير الدينى للمسلم هو الذى يمنحه القدرة على حسن السلوك والجدية فى التفكير والعمل على الابتكار ، والتصرف فى مواجهة المواقف ، والضمير الدينى هو الذى يدفع المسلم إلى أن يرعى الله فى عمله لأنه هو الرقيب المطلع ، ويصوره لنا الرسول الكريم ﷺ فى العبادة بقوله : «أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» (رواه البخارى)

• ومن عجيب صنع القرآن فى تربية هذا الوازع الدينى الخلقى أنه لم يجعل نتيجة الخوف أمرًا سلبيًا ، وهو النجاة من العقوبة وعدم التعرض للعذاب ، بل جعل للخوف فوق النجاة والسلامة ، جزاءً إيجابيًا وثمرة أخرى فوق الخلاص من العقاب وهى الثواب الجزيل والأجر العظيم ، استمع إلى قول الله تعالى : ﴿وأَمَّا مَنْ خاف مَقَام ربِّه ونهى النَّفسَ عَنِ الْهوى ، فإنَّ الجنَّةَ هى المأْوَى﴾

[النازعات : ٤٠ - ٤١] .

وقوله : ﴿ولِمَنْ خَافَ مَقامَ رَبِّه جَنَّتانِ﴾

[الرحمن : ٤٦]

٥ – القيادة :

من الطبيعى أنه حيثما وجد العمل الاجتماعى الذى يحتاج إلى التدبير ، ظهرت الحاجة إلى الرئاسة ، وقد أوصى بها الرسول ﷺ بقوله : «إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا عليهم أحدهم» (رواه أبو داود)

ومقياس الرئاسة عنده شرطان هما جماع الشروط فى كل رئاسة :

الكفاءة ، والحب ، فقال : «أيما رجل استعمل رجلاً على عشرة أنفس علم أن فى العشرة أفضل ممن استعمل ، فقد غش الله وغش رسوله ، وغش جماعة المسلمين» (رواه أبو يعلى عن حذيفة)

• فالرسول ﷺ بذلك يؤكد على مبدأ اختيار القائد على أساس الكفاءة ووضع الرجل المناسب فى المكان المناسب ، وقال أيضاً : «وأيما رجل أم قوما وهم له كارهون لم تجز صلاته أذنيه» (رواه الطبرانى) .

وهو هنا يبين معنى الحب أى حب المرءوسين لقائدهم الذى تبلغ أهميته كشرط فى اختيار القائد إلى حد سقوط الصلاة عن الإمام الذى يكرهه الناس .

• ودعا الإسلام إلى احترام القائد فقال تعالى : ﴿لا تَجعلُوا دُعَاءَ الرسُولِ بينكُمْ كدعَاءِ بعضِكمْ بَعْضًا﴾

[النور : ٦٣]

وقال أيضًا : ﴿يأيُّها الَّذينَ آمنُوا لاَ تَرفعُوا أصْواتكُمْ فوقَ صوتِ النَّبىِّ ولاَ تَجهْروا لهُ بِالقَولِ كَجَهْرِ بعضِكُمْ لبعضٍ أن تحبَطَ أعْمالكُمْ وأنتم لا تَشعرونَ﴾

[الحجرات : ٢] .

وبذلك حتم على المسلمين احترام القائد وعدم تسميته كتسمية الأفراد بعضهم بعضا . فما يصح أن يقال له : يا محمد ، وكان نداؤهم له : يا رسول الله .

٦ – الطاعة :

ه ويأمر الإسلام بالطاعة ويوضح فلسفتها ومغزاها الاجتماعى ، فهى ليست «خضوعًا للسلطة» ، بل هى ضرورة اجتماعية لصالح الجماعة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالقيادة التى هى الأخرى «ضرورة اجتماعية» لصالح الجماعة ، فالله تعالى يقول : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وأَطِيعُوا الرسُولَ وأُولِى الأَمْرِ منكُمْ﴾ .

[النساء : ٥٩]

وأولو الأمر هم الذين ائتمنهم الله على من هم فى رعايتهم ممن هم دونهم فى الرتبة ، ويقول جل شأنه : ﴿ومَن يُطِعِ اللَّهَ والرسُولَ فأُولَئكَ مع الَّذينَ أنْعمَ اللَّهُ عليهم مِن النَّبيينَ والصِّديقينَ والشُّهداءِ والصَّالحينَ وحسُنَ أُولئك رفيقًا﴾

[النساء : ٦٩]

ويقول الرسول ﷺ : «اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة» (رواه البخارى عن أنس) .

• لكن الطاعة التى يريدها الإسلام ليست عمياء ، بل هى الطاعة الواعية البصيرة : «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، إنما الطاعة فى المعروف» (متفق عليه عن على رضى اللّٰه عنه) .

• وقد حرص الإسلام على تحقيق جانبى الطاعة فى شخصية المسلم ، فكما دعا إلى الطاعة الواعية التى يستخدم فيها الإنسان عقله وتفكيره ، فقد دعم ذلك عمليا فى العبادات :

١ - **فالصلاة** : تجسيد حى للطاعة والنظام فى أجلى صورهما ، ففيها يتعلم المسلمون تسوية الصفوف حيث جعلت من تمام الصلاة ، فعن أنس رضى اللّٰه عنه قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : «سووا صفوفكم فإن تسوية الصف من إقامة الصلاة» (رواه الشيخان) ، وخلف الإمام يتحرك المصلون بتعاليمه ولا يستطيع واحد منهم التصرف من تلقاء نفسه ، وإلا بطلت صلاته .

٢ - **والصوم** : صبر على الجوع والعطش وضبط للنفس عن متطلباتها ، وتنفيذ للأوامر الصادرة من اللّٰه سبحانه وتعالى لتصحيح البدن وترقية الوجدان وشفافية النفس وتقوى اللّٰه .

٣ - **والزكاة** : طاعة للّٰه بإخراج الجزء الواجب إخراجه بلا رقابة من أحد وبالقدر المحدد .

٤ - **والحج عمليًا** : طاعة ونظام ، مع تحمل المشاق والتزام دقيق

لأداء المناسك فى وقت ومكان محددين ، ففى مكان واحد هو جبل عرفات يقف المسلمون جميعًا دون مخالفة ، وبدونه لا يكون حجا ، والجميع فى وقت واحد وزى واحد وتلبية واحدة هى هتاف واحد إلهى رائع : «لبيك اللهم لبيك».

٧ - التعاون ووحدة الصف والهدف :

• التعاون أساس العمل المتكامل ، وعلى قدر تعاون الأفراد يكون رقى الأمم ونهضتها وتكون أيضًا قوة جيشها ، ولقد حث القرآن الكريم على التعاون : ﴿وتعاونُوا على الْبِرِّ والتقوى ولا تعاوَنُوا على الإثْمِ والعُدوانِ﴾

[المائدة : ٢]

• وحذر أيضًا من التنازع لأنه يبعد ما بين النفوس ، ويذهب بروح التناصر فيكون أبعد أثرًا وأشد تنكيلاً بالأمة وبالجيش مما يفعله العدو ، قال تعالى : ﴿وَلاَ تَنازعُوا فتفشَلُوا وتَذْهَبَ رِيحُكُمْ واصْبِروا إنَّ اللهَ مع الصَّابرينَ﴾

[الأنفال : ٤٦]

• وحرص الإسلام الحرص كله على أن يحرر الأمة من أغلال العبودية والضعف ، ومن ضلال التمزق والتفرق ، فقال الرسول ﷺ : «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم» (رواه ابن ماجة) وفى هذا النص النبوى الكريم تصوير للمساواة الفاضلة بين أبناء الأمة الواحدة ، وإشعار لهم بأنهم

متكافلون متكاملون ، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ ويقول الرسول ﷺ : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا» (رواه البخارى) .. وفيه أيضًا تصوير لتضامن هذه الأمة ، فكل فرد فيها صالح بإيمانه وإخلاصه لأداء الواجب ، وحفظ الأمانة ، ومقياس التقديم والتفضيل هو التقوى والعمل الصالح لقول الله تعالى : ﴿يَأَيُّها النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُم من ذَكَرٍ وأُنثَى وجَعلناكُمْ شُعوبًا وقبائِلَ لتعارفُوا إنَّ أكرمَكُمْ عند الله أتقاكُمْ إنَّ الله عليمٌ خبيرٌ﴾

[الحجرات : ١٣]

ه وفى الحديث أيضًا تصوير لتكتل الأمة المؤمنة ضد أعدائها ووجوب تجميعها لصيانة مقدساتها وحرماتها وحماية ديارها وذمارها ، فهى تأتلف بكل وحداتها وطاقاتها لدرء أى خطر يهددها أو يهدد جانبًا منها ، لأنها فى وحدتها كالبناء الواحد ، إذا أصيب منه ركن اختلت بقية الأركان ، ومن هنا قال الرسول ﷺ يصور الأمة فى تضامنها وتعاونها : «مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» (رواه مسلم وأحمد) .

ثم تتمثل الوحدة والتضامن والتعاون والتماسك فى أرفع صورها فى قوله الله تعالى : ﴿إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذينَ يُقَاتلونَ فى سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنيانٌ مَرصُوصٌ﴾

[الصف : ٤]

٨ - تقدير المسئولية والإخلاص فى العمل :

• وعنى الإسلام بتربية المسلم على تقدير المسئولية والإخلاص فى العمل ، وقد جاء العمل الصالح فى القرآن الكريم مقرونًا بالإيمان حتى تتكرر فيه عبارة ﴿الَّذين آمنُوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ﴾ عشرات المرات ، مما يوحى فى قوة ووضوح بأن الإنسان لا يكفيه أن يعرف أو يضع فكرة فى رأسه ، بل يجب عليه أن يعمل بما تقتضيه هذه الفكرة فى جد وإقدام ، وقدرة الله وتوفيقه معه بقدر يقينه وإخلاصه .

• ويقول النبى ﷺ : «ليس الإيمان بالتحلى أو بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل» (رواه أبو نعيم والديلمى) أى ليس الإيمان بالكلام الحلو الذى تظهره بلسانك فقط أو بتمنى حصول الأمر المرغوب فيه ، ولكن يجب أن تكون هناك معرفة القلب العميقة لهذا القول وتصديقه بالعمل الطيب الصالح ، وإلا اتسعت مسافة الخلف بين المعرفة والتصرف ، وبين القول والعمل ، فيحق وعيد الله : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولونَ ما لاَ تَفْعلُونَ • كَبُرَ مَقْتًا عند اللَّهِ أن تقولُوا ما لاَ تفعلُونَ﴾

[الصف : ٢ - ٣]

• وفى الحديث الشريف : «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» (رواه الخمسة) تجسيد لمسئولية الإنسان عن عمله ورعاية من هم تحت رعايته ، ويدعو الرسول ﷺ إلى الصدق والإخلاص فى العمل حين يقول : «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه» (رواه أبو يعلى) ، وامتدح

الله الصادقين والأوفياء في قوله : ﴿مِنَ المؤْمنينَ رِجالٌ صدَقُوا ما عَاهَدُوا اللَّه عَليهِ ..﴾

[الأحزاب : ٢٣]

وقوله : ﴿وأَوفُوا بالعهدِ إنَّ العهدَ كان مَسئُولاً﴾

[الإسراء : ٣٤]

وقوله : ﴿ومَنْ أَوْفَى بما عَاهَد عَلَيْهُ اللَّهَ فسيُؤْتيه أُجْرًا عظيمًا﴾

[الفتح : ١٠]

ه ويدعو ﷺ إلى أن يكون العمل خالصًا لوجه الله وابتغاء لمرضاته ، وليس ابتغاء ثناء الناس فيقول : «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وابتغى به وجهه» (رواه النسائي والطبراني).

٩ – التربية البدنية والرياضية :

ه وحث الإسلام على تعلم السباحة والرماية وركوب الخيل مسرجة ومعراة ، والسباق في الجرى ، والسباق بين الفرسان على الخيل أو الإبل ، والمصارعة ورفع الأثقال إلى غير ذلك من ألوان التربية البدنية والرياضية التي تبني الجسم السليم .

ه ويمدح الإسلام المؤمن القوى ويعتبره أفضل عند الله من المؤمن الضعيف فيقول الرسول ﷺ : «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من

المؤمن الضعيف» (رواه مسلم) ويقول فى حديث آخر : «إن لبدنك عليك حقًا» (رواه البخارى) .

١٠ - التدريب على الرماية وأساليب القتال :

• وحث الإسلام على التدريب على استخدام أسلحة الرمى وأساليب القتال ، وإتقانه والمداومة عليه ، وهذا بعض ما يفهم من قوله تعالى : ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾

[الأنفال : ٦٠]

• ومن ذلك قوله ﷺ : «ألا إن القوة الرمى» وكررها ثلاثًا (رواه مسلم) .. «إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه المحتسب فى عمله الخير ، والرامى به ، والممد به ، فارموا واركبوا وأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا» (رواه الخمسة) ... «كل ما يلهو به المرء المسلم باطل إلا رميه بقوسه وتأديب فرسه ، وملاعبة أهله» (رواه الخمسة) .

• وكان عليه الصلاة والسلام يشارك أصحابه فى التدريب تشجيعًا لهم ، فقد خرج عليه الصلاة والسلام مع نفر من أسلم ينتضلون بالسوق (أى يتسابقون فى الرمى) فقال : «ارموا بنى إسماعيل ، فإن أباكم كان راميًا ، ارموا وأنا مع بنى فلان» .. فأمسك أحد الفريقين ، فقال : ما لكم لا ترمون ؟ فقالوا : كيف نرمى وأنت معهم ؟ فقال : «ارموا وأنا معكم

جميعًا» (رواه البخارى وغيره عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه) (والمراد بالمعية : معية القصد إلى الخير) .

ومر عليه الصلاة والسلام بموضع كان الصحابة يتدربون فيه على الرمى ، فنزع نعليه ثم قال : «روض من رياض الجنة» . يقصد أن العمل الذى يعمل فى هذا الموضع وهو التدريب يوجب روضة من رياض الجنة .

• وحث عليه الصلاة والسلام المسلمين على التدريب على ركوب الخيل وعلى فنون الحرب بها فقال : «الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، الأجر والغنيمة» (متفق عليه عن ابن عمر رضى الله عنهما) . كما رغب فى اقتناء الخيل والعناية بها ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول ﷺ : «من احتبس فرسًا فى سبيل الله إيمانا بالله وتصديقًا بوعده ، فإن شبعه وريه وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامة» (رواه البخارى) .

• وحذر الرسول ﷺ من الانقطاع عن التدريب وعدَّه من المعاصى فقال : «من تعلم القرآن ونسيه فليس منا ، ومن تعلم الرمى ونسيه فليس منا» (رواه أحمد ومسلم) وقال أيضا : «من ترك الرمى بعدما علمه فإنما هى نعمة جحدها» (رواه أبو داود) وقال «من علم الرمى ثم تركه فليس منا أو فقد عصى» (رواه أحمد ومسلم) ، وقد كان من أثر ذلك أن بعض المسلمين كان يتدرب حتى فى يوم العيد.

١١ - الحذر ودرجة الاستعداد العالية :

ه وعنى الإسلام أشد العناية باتخاذ الحيطة والحذر والتأهب والاستعداد لحرمان العدو من المفاجأة ، فقال تعالى : ﴿يَأَيُّها الَّذينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾

[النساء : ٧١]

ولعل أبلغ ما يؤكد ذلك ما ورد فى القرآن الكريم بشأن الصلاة فى الحرب ، فقد أمر الله تعالى بأدائها فى وقتها ولكنها تكون ركعتين بدلا من أربع ، وأمر بأن تصلى طائفة مع الرسول ﷺ بينما تكون الطائفة الأخرى فى موقف الحراسة ، حتى إذا فرغت الطائفة الأولى اتخذ كل من الفريقين حالة الآخر ، قال تعالى : ﴿وإذَا كُنْتَ فِيهمْ فَأَقمتَ لهمُ الصَّلاةَ فلْتقُمْ طَآئِفةٌ منهُم مَّعكَ ولْيأْخُذُوا أَسْلحتَهمْ فإذا سَجدُوا فلْيكونُوا من ورَآئِكُمْ ولْتأْتِ طَآئفةٌ أخْرى لم يُصَلُّوا فلْيصَلُّوا معك ولْيَأخذُوا حذْرهُمْ وأَسْلحتَهُمْ وَدَّ الَّذين كَفَرُوا لو تغفُلُونَ عن أَسْلحتكُمْ وأَمْتعتكُمْ فيميلُونَ عليكُمْ مَيْلَةً واحدَةً﴾

[النساء : ١٠٢]

فهل هناك أدل على عناية الإسلام بالحذر والتأهب من أنه يأمر المسلمين به حتى فى الصلاة التى يؤدونها لله ، ويكونون فيها بين يديه ؟

ه ثم تجسد الآية الكريمة عواقب الغفلة وترك الحذر والأضرار البالغة التى يتعرض لها المسلمون من جرائها : ﴿... فَيميلُونَ عليكُم مَيْلَةً واحِدَةً﴾

ويبين الرسول ﷺ فضل القائم بالحراسة فيقول : «عينان لا تمسهما النار يوم القيامة : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله» (رواه الترمذي) .

• ويقرر الرسول ﷺ المعيار الصحيح لدرجة الاستعداد لدى المجاهدين في أنها «القدرة على العمل الفوري في مواجهة المواقف المفاجئة» فيقول ﷺ : «خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله كلما سمع هيعة (أي صيحة خطر) طار إليها» (رواه مسلم وغيره) .

• ونستطيع أن ندرك هذا المعيار ودرجة إحكامه حين نلاحظ ما يلي :

١ - كلمة «ممسك» في عبارة (رجل ممسك بعنان فرسه) تعني درجة أعلى في الاستعداد من مجرد ركوب الفرس أو الوقوف بجانبه ، فهي تفيد «استمرار» حالة الإمساك بعنان الفرس ، وذلك دليل على الاستعداد الكامل والمستمر للانطلاق بمجرد الإنذار ، فالفارس والحالة هذه إذا جاءته الإشارة بالانطلاق أو إذا رأى خطرًا ،لن يكون بحاجة إلى الإتيان بأي تصرف ولا حتى مد يديه إلى عنان فرسه ليمسك به لأنه ممسك به فعلاً ، أي أن كل ما سوف يفعله هو أن ينطلق على الفور .

٢ - كلمة «طار» في عبارة (كلما سمع هيعة طار إليها) ذات مدلول يختلف كثيرًا عن كلمة اندفع أو تقدم أو أسرع ، وتعبر عن أسرع شكل من أشكال الحركة على الإطلاق ، فأنت إذا طلبت من إنسان أن يتحرك بأقصى سرعة فإنك تقول له : طـ

٣ - كلمة «خير الناس» فى بداية الحديث تنطوى على تكريم للمجاهد الذى يقف فى أعلى حالات اليقظة ، وهو تكريم يستحقه لقاء العناء والجهد البدنى والعصبى الذى يبذله لكى يكون على تلك الحال من التأهب والاستعداد ، هذا بالإضافة إلى الفضل الذى يرجع إليه فى إنذاره لأمته وتنبيهها إلى الخطر حتى لا تؤخذ على غِرَّةٍ .

وتنطوى تلك الكلمة أيضا على معنى تربوى عظيم هو تحريض المجاهدين جميعًا على أن يكونوا فى أعلى درجات الاستعداد للعمل الفورى لدفع الخطر عن أمتهم حتى يحظوا بوصف «خير الناس» .

١٢ - وعى الأمن

من الضرورات الحيوية لأمن الأمة وسلامتها ، الحفاظ على الأسرار وكتمان ما يستفيد منه العدو ، من أجل ذلك فإن الإسلام يعد الأسرار أمانة من الأمانات التى على المسلمين أن يحافظوا عليها فقال تعالى : ﴿يَاأَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَخونُوا الله والرسولَ وتَخُونُوا أَمَاناتكُمْ﴾

[الأنفال :٧]

وقال الرسول ﷺ : «إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهو أمانة» (رواه أبو داود والترمذى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه) وقال أيضًا : «إنما يتجالس المتجالسان بالأمانة ، ولا يحل لأحدهما أن يفشى على صاحبه ما يكره» (رواه ابن المبارك والحاكم وصححه) ، وقال : «ألا لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له» (رواه أحمد) .

• وحذر ﷺ من المغامرة بالحديث أو التعجل بالقول وحث على ضرورة الحذر والتدبر قبل الكلام ، عن بلال بن الحارث المزنى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن أحدكم ليتكلم الكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغته فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة ، وإن أحدكم ليتكلم الكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، فيكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه» (رواه الترمذى وقال : حسن صحيح) ، كما قال ﷺ : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت» (متفق عليه) وقال : «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» (رواه الترمذى) .

• كما نهى ﷺ عن إطلاق الكلام فى قوله : «كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع» (رواه مسلم) وحث ﷺ على سرية الأعمال والخطط فى قوله : «استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان» (أخرجه الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى شعب الإيمان) .

• وقد عنى المسلمون بغرس وعى الأمن وكتمان الأسرار فى أبنائهم منذ الصغر ، قال أنس بن مالك : «أتى على رسول الله ﷺ وأنا ألعب مع الغلمان فسلم علينا ، فبعثنى فى حاجة ، فأبطأت على أمى ، فلما جئت قالت : ما حبسك ؟ (أى أخرك) فقلت : بعثنى رسول الله ﷺ لحاجة ، قالت : ما حاجته ؟ قلت : إنها سر ، قالت : لا تخبرن بسر رسول الله ﷺ أحدًا» (رواه مسلم) .

• وقال العباس بن عبد المطلب لابنه عبد الله : «إنى أرى هذا الرجل (يعنى عمر بن الخطاب) يقدمك على الأشياخ (يعنى كبار الصحابة) فاحفظ عنى خمسًا : لا تفشين له سرًّا ، ولا تغتابن عنده أحدًا ، ولا يجربن عليك كذبًا ، ولا تعصين له أمرًا ،ولا يطلعنّ منك على خيانة» (الإحياء جـ ٢ ص ١٥٨) .

١٣ - الثبات فى الميدان :

وحث الإسلام المسلمين على الثبات فى الميدان والإخلاص فى الحرب فقال تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون﴾

[الأنفال : ٤٥]

ونهى الإسلام عن الفرار من الصفوف وعده من الكبائر قال تعالى : ﴿يَاأَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُم الَّذينَ كَفرُوا زَحْفًا فلا تُولُّوهُمُ الأَدْبَارَ ، ومَن يُولِّهِمْ يَومئذٍ دُبُرَهُ إلاَّ مُتحرفًا لِّقتالٍ أو مُتَحيزًا إلى فئةٍ فقدْ بَآءَ بغَضبٍ من الله ومَأْوَاه جَهَنَّمُ وبئسَ المصِيرُ﴾

[الأنفال : ١٥ ، ١٦]

وحرص المسلمون على تربية أولادهم على الثبات والشجاعة ، ومن ذلك أن على بن أبى طالب رضى الله عنه أعطى الراية لابنه محمد وقال له : «تزول الجبال ولا تزول ، واعلم أن النصر من عند الله سبحانه».

١٤ – مقاومة الحرب النفسية :

• ووضع الإسلام خير المبادىء لمقاومة أساليب الحرب النفسية التى يهدف العدو من ورائها إلى تدمير الروح المعنوية وإرادة القتال للمسلمين شعبًا وجيشًا وإضعاف روح العمل والجهاد وقتل الإيجابية لديهم ، فيقرر أن العقيدة الراسخة المؤسسة على الإيمان الذى لا يتزعزع هى الركيزة العظمى لتحصين المسلمين ضد الحرب النفسية بمختلف صورها وألوانها .

• إن المؤمن إيمانًا كاملاً لا يخاف الوعيد ولا يرهبه التهديد ، وليس جبانًا رعديدًا كأولئك الذين يقول فيهم الكتاب الكريم : ﴿فإذَا جَاء الخوفُ رأيتَهُمْ ينظُرونَ إليكَ تدورُ أعْيُنُهم كالَّذى يُغْشَى عليه مِنَ الموتِ﴾

[الأحزاب : ١٩]

بل إن المؤمن لا يزيده التهديد والوعيد وأساليب الحرب النفسية إلا إيمانًا وثباتًا واستعدادًا للبذل والتضحية كأولئك الذين قال فيهم جل شأنه : ﴿الَّذينَ قال لَهُمُ النَّاسُ إنَّ الناسَ قد جمعُوا لكُمْ فاخْشَوهمْ فزَادهُمْ إيمانًا وقالُوا حَسْبُنَا الله ونعمَ الوكيلُ﴾

[آل عمران : ١٧٣]

• ويتفق علماء النفس وخبراء الحرب النفسية على أن الحرب النفسية «تؤثر بفعالية أكثر على الجنود الخالية من العقائد الثابتة» ، لذلك كان الإيمان بالنسبة للمسلمين نورًا يهديهم ، وكان بالنسبة للإعداء صخرة

تتحطم عليها أساليبهم ومحاولاتهم للنيل من معنويات المسلمين ، فكان جوابهم : ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ ونعم الوكيلُ﴾ ولذلك أعطاهم الله النعمة والفضل وصرف عنهم السوء ورضى عنهم :

﴿فانقلبُوا بِنعمةٍ من اللَّهِ وفضْلٍ لم يمسَسْهمْ سُوءٌ واتَّبَعُوا رِضْوانَ الله واللَّهُ ذو فضْلٍ عظيم﴾

[آل عمران : ١٧٤]

• ولعل من أروع الأمثلة التى تذكر فى هذا المقام ما حدث بين قائد جيش الفرس وبين خالد بن الوليد قائد جيش المسلمين وكان تفوق الأعداء ظاهرًا فى العدد والعدة ، فبعث قائدهم برسالة محاولاً بث روح اليأس فى نفوس المسلمين وزعزعة ثقتهم فى قدرتهم على التغلب على جيشه المتفوق تفوقًا ساحقًا ، وهنا تتجلى عظمة العقيدة الراسخة ، وأثرها العظيم فى مواجهة حرب التخذيل وتثبيط العزائم ، إذ بعث خالد برد يقول فيه : «لقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة» .. وبهذا انتصر المسلمون .

١٥ – دور المرأة فى الدفاع عن أمتها :

• وتعلمت المرأة فى المدرسة الإسلامية أن لها دورًا فعالاً فى الدفاع عن أمتها سواء فى ميدان المعركة أو فى الجبهة الداخلية .

• ففى ميدان المعركة تقوم المرأة بخدمات الإعاشة والإمداد بالمياه والطعام وبالخدمة الطبية من إسعاف وتمريض وإخلاء للجرحى والشهداء ،

قالت الرُّبيع بنت معوذ رضى الله عنها : «كنا نغزو مع رسول الله ﷺ ، نسقى القوم ونخدمهم ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة» (رواه البخارى وأحمد) ، وقالت أم عطية الأنصارية رضى الله عنها : «غزوت مع النبى ﷺ سبع غزوات أخلفهم فى رحالهم وأصنع لهم الطعام وأداوى الجرحى وأقوم على المرضى» (رواه مسلم وأحمد وابن ماجة) .

• وعن سهل بن سعد رضى الله عنه أنه سئل عن جرح النبى ﷺ يوم أحد فقال : جرح وجه النبى ﷺ وكسرت رباعيته (من الأسنان) وهشمت البيضة على رأسه ، فكانت فاطمة عليها السلام تغسل الدم ، وعلىٌّ يمسك ، فلما رأت الدم لا يزيد إلا كثرة أخذت حصيرا فأحرقته حتى صار رمادا ثم ألزقته فاستمسك الدم» (رواه الشيخان) .

• ووصل دور المرأة فى المعركة إلى حد الاشتراك فى القتال ، فقد أخرج مسلم من حديث أنس أن أم سليم اتخذت خنجرًا يوم حنين وقالت للنبى ﷺ : «اتخذته إن دنا منى أحد المشركين بقرت بطنه» فهذا يدل على جواز القتال للمرأة وإن كان فيه ما يدل على أنها لا تقاتل إلا مدافعة ، وليس منها أنها تقصد العدو وتطلب قتاله .

• أما عن دور المرأة فى الجبهة الداخلية فكان دورًا إيجابيًا باليقظة والحراسة لحماية القاعدة التى انطلق منها الجيش ، ففى غزوة الاحزاب رأت صفية بنت عبد المطلب يهوديًا يطيف بالحصن فقالت لحسان ابن ثابت : إن هذا اليهودى يطيف بالحصن وإنى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا اليهود ، ورسول الله وأصحابه قد شغلوا عنا فانزل إليه

فاقتله ، فأجابها حسان : يغفر الله لك يا إبنة عبد المطلب ، والله ما أنا بصاحب هذا ، فأخذت صفية عودًا ونزلت من الحصن وضربت به اليهودى حتى قتلته .

ه ثم إن من أعظم أدوار المرأة المسلمة وقت الحرب ، ضربها القدوة والمثل لزوجها وأولادها فى الروح المعنوية وإرادة القتال المبنية على الإيمان والعقيدة الراسخة ، فتشجعهم على الخروج للقتال ، وعلى الاستبسال فيه ، وتصبر الصبر الجميل عند استشهادهم ، بل تفرح بهذا الشرف الذى حظيت به ، ومن أروع الأمثلة على ذلك ما قدمته الخنساء من مثل فريد حينما استشهد أولادها الأربعة فى المعركة ، ويجىء إليها نبأ استشهادهم فتقول : «الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته» .

١٦ - عقيدة الجهاد فى سبيل الله :

ه عقيدة القتال - فى مفهوم العلم - تعتبر هى منبع الإرادة القتالية والشعلة التى تضىء قلب المقاتل بنور الإيمان بالقضية التى يقاتل من أجلها والتى تشكل فى نفسه قوة ذاتية تحركه إلى الفدائية فى القتال إلى درجة استرخاص النفس فى سبيل تلك القضية .

ه ولقد جعل الله تعالى «الجهاد فى سبيل الله هو الوظيفة الشريفة التى كرم بها الأمة الإسلامية كما يفهم من قوله تعالى : ﴿وَجَاهِدُوا فى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُو اجْتَباكُمْ﴾ (واجتباكم يعنى اختاركم)

[الحج : ٧٨]

* فالاختيار هنا تكريم وتشريف لهذه الأمة التى جعلها جل شأنه فى خير منزلة بين الأمم فى قوله : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخرجَتْ للنَّاسِ تأْمُرونَ بالْمعروفِ وتَنْهَونَ عن المنكَر وتُؤْمِنُونَ باللَّهِ﴾

[آل عمران : ١١٠]

وفى قوله سبحانه : ﴿وكَذلِكَ جَعلْناكُمْ أُمةً وسَطًا لتكونوا شُهدَاءَ على النَّاسِ ويكُونَ الرسولُ عليكمْ شهيدًا ﴾

[البقرة : ١٤٣]

ومعنى أمة وسطا أى خيارًا معتدلين (إن خير الأمور الوسط) ومعنى شهداء على الناس أى فى مقام عال (الشهيد فى اللغة هو الذى ينظر من عل) .

* وقد سبقت حكمة الله جل شأنه أن تكون الأمة الإسلامية أمة مجاهدة عزيزة الجانب ، ولم يرد لها أن تخضع ولا أن تجنح إلى الذلة ولا أن تستكين إلى هوان يومًا ما ، لهذا المعنى السامى الذى أراده الله سبحانه نرى القرآن الكريم حافلاً بآيات الجهاد ، ونرى سنة الرسول ﷺ ومسالك أصحابه جميعًا فى هذا الاتجاه ، ولابد هنا من التنويه بأن الإسلام بقدر عنايته بالجهاد ، عنى بأن تكون نفوس أهله رحيمة وألا يشطوا فى اتجاههم فالقصد إذن من الجهاد هو إعلاء كلمة الله وصيانة العزة للأمة الإسلامية ، ولعل هذا مما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ولله العزةُ ولرسولهِ وللمؤْمنينَ﴾

وليست عزة الإسلام المطلوبة عزة الجبروت ولا الطغيان أو ترويع الآمنين ، وإنما هى عزة العدالة والحق والرحمة والإنصاف .

• وقد ربط الله سبحانه وتعالى الإيمان بالجهاد فى صورة متماسكة لا انفصام لها بحيث يزول الإيمان عند الفرار من الجهاد وعند النكوص عنه ، فإن عقد الإيمان الذى بين المؤمنين وبين الله جل شأنه . من أهم شروطه أن يبيع المؤمنون بمقتضى هذا العقد أنفسهم وأموالهم مجاهدين بذلك فى سبيل الله ، وثمن ذلك إنما هو الجنة ، قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشترى من المؤْمنينَ أَنفُسَهُمْ وأَمْوالَهُمْ بأَنَّ لهمُ الجنةَ يُقاتلونَ فى سَبِيلِ الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلونَ وَعْدًا عَلَيهِ حَقًا فى التوراة والإنجِيلِ وَالقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْده مِنَ اللَّهِ فاسْتبشِرُوا ببيعكُمُ الَّذى بايعْتم بِه وذَلك هو الفوزُ العَظِيمُ﴾

[التوبة: ١١١]

١٧ - الصبر فى الجهاد (التطعيم المعنوى) :

• ويعلم الإسلام المجاهد ويربيه على قوة التحمل والصبر على مشاق القتال وأن يحتفظ بأعصابه وثباته ورباطة جأشه ولا يهتز أمام المفاجئات أو الصدمات ، قال تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وصَابِروا ورَابِطُوا واتَّقُوا اللَّهَ لَعَلكُمْ تُفلِحُونَ﴾

[آل عمران : ٢٠٠]

• فتلك هى عناصر القوة فى الجهاد ، وهى تتعلق بالمجاهد قبل أن تتعلق بمعدات القتال ، وهكذا تثبت المدرسة الإسلامية أن معدات القتال وحدها لا تشكل عنصر القوة فى الجهاد ، بل لابد من قلب مؤمن وعزيمة صادقة وصبر قوى ورغبة دافقة ومصابرة للأعداء ، فلا ينفد الصبر ، بل تستعمل الحيلة فى المقاومة والصمود ، ولا تضطرب الأعصاب عند الصدمة الأولى وقد قال النبى ﷺ : «إنما الصبر عند الصدمة» (رواه البخارى) وليس الجهاد نزهة أو سياحة ، إنما هو بلاء واختبار ، ولقد قال الله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الجنة ولَمَّا يعلَمِ اللَّهُ الَّذينَ جاهَدوا منكُمْ ويعْلَمَ الصَّابرينَ﴾

[آل عمران : ١٤٢]

• وحتى يكون الصبر والعزيمة الصادقة ، يجب على المحارب أن يقدر المشقة قبل أن يقدر الانتصار ، وأن يعرف أنه يذوق البلاء قبل أن يذوق نعمة الانتصار ، وقد قال سبحانه وتعالى للمجاهدين : ﴿لَتبلَوُنَّ فى أَمْوالِكُمْ وأَنفُسِكُمْ ولتسمعُنَّ من الَّذينَ أُوتُوا الكتابَ من قبلكُمْ ومِنَ الَّذينَ أشركوا أَذًى كثيرًا وإن تَصْبِروا وتَتَّقُوا فإنَّ ذلكَ من عَزْمِ الأُمُورِ﴾

[آل عمران : ١٨٦]

وقال سبحانه : ﴿يَأَيُّهَا الَّذين آمَنُوا اسْتَعينُوا بالصبر والصَّلاةِ إنَّ اللَّهَ مع الصَّابرينَ ، ولا تَقُولُوا لمن يُقْتَلُ فى سَبيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بل أَحيَاءٌ ولَكِن

لا تَشْعُرونَ ، ولنبلُونكُم بشيء من الْخوفِ والجوعِ ونقصٍ من الأموالِ والأنفسِ والثمراتِ وبشِّرِ الصَّابرينَ ، الَّذين إذَا أصابتهم مّصيبةٌ قالُوا إنَّا لله وإنَّا إليه راجعونَ ، أُولئكَ عليهِمْ صَلواتٌ من ربِّهمْ ورحمةٌ وأولئك هُمُ المُهْتدوُنَ﴾

[البقرة : ١٥٣ - ١٥٧]

ه وإن الله تعالى كان يربى روح الصبر فى المجاهدين بحملهم على توقع الأذى والبلاء ، حتى إذا نزل بهم لم يكن مفاجئًا لهم ، ولقد قال سبحانه فى ذلك : ﴿أمْ حَسِبتُمْ أن تدخُلوا الجنةَ ولَمَّا يأْتِكُم مَّثلُ الذينَ خَلَوْا من قبلكُم مَسَّتْهمُ البأسَاءُ والضَّراءُ وزُلْزِلُوا حتى يقولَ الرسولُ والذينَ آمَنُوا معهُ متَى نصرُ اللَّهِ ألا إنَّ نَصْرَ اللَّهِ قريبٌ ﴾

[البقرة : ٢١٤]

ه وإن توقع الشدة يسهل احتمالها ، ويجب على الذين يتقدمون للحروب أن يدرعوا دائمًا بالصبر والإيمان ، فإن الصبر يكون معه النصر ، والإيمان يشد العزيمة ، ويقوى الاحتمال ، فلا يتخذ القتال هزوًا ولعبًا ، ولا يفهم أنه مادامت معه الأسلحة فإن النصر معه ، لأن الأسلحة مهما يكن فتكها قد تتحطم فى يد من لا يستطيع حملها ، أما الإيمان فهو القوة الدائمة التى تدفع إلى العمل ولا تمل ولا تتحطم ، ولا يمكن أن تنالها أيدى الأعداء ، وهو الذى يجدد الأسلحة ، والأسلحة وحدها لا تجدد القلوب ولا تدفع الوهن .

• وتوضح المدرسة الإسلامية للمقاتل ناحية هامة فى مجال تحمل المشاق فى المعركة فهى توضح له أنه إذا اشتد القتال فلا يصح أن يتصور أنه هو وحده الذى يعانى من شدته ، بل عليه أن يعلم أن عدوه أيضًا يعانى ، وأن الصمود والثبات إلى النهاية هو السبيل إلى النصر ، قال تعالى : ﴿إن تكونُوا تَألمونَ فإنَّهُمْ يألمونَ كما تألمونَ وتَرْجُونَ من اللَّهِ ما لاَيَرْجُونَ وكان اللَّهُ عليمًا حكيمًا﴾

[النساء : ١٠٤]

• وحتى فى حالة عدم الحصول على النصر الكامل فإن الإسلام لا يقر الانهيار فى الروح المعنوية أو إرادة القتال ، بل يدعو المجاهدين إلى طرح الحزن واستعادة قوتهم والإبقاء على بطولتهم وشجاعتهم والمحافظة على روحهم المعنوية ، قال تعالى ﴿ولا تَهنُوا ولا تحزَنُوا وأَنتمُ الأَعْلَوْنَ إن كنتم مُؤْمنينَ ، إن يَمْسَسْكم قرحٌ فقد مَسَّ القومَ قَرْحٌ مثلُهُ وتِلْكَ الأيامُ نداولُهَا بين النَّاسِ وليعلَمَ اللَّهُ الَّذينَ آمَنُوا ويتخِذَ منكمْ شُهداءَ واللَّهُ لا يُحبُّ الظَّالمِين ، وليمحِّصَ اللَّهُ الذِينَ آمَنُوا ويَمحقَ الكَافِرينَ﴾

[آل عمران : ١٣٩ - ١٤١]

• ولقد امتحن المسلمون وامتحن الرسول القائد ﷺ ، فكانوا بإيمانهم أقوى من الأحداث التى واجهتهم ، قال تعالى : ﴿فَمَا وهَنُوا لِما أَصَابهُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ وما ضَعُفوا وما اسْتكَانُوا﴾

[آل عمران : ١٤٦]

١٨ - التحكم فى درجة التذبذب العاطفى :

• الحرب من طبيعتها احتمال النجاح والفشل ، والمطلوب من المقاتل - باعتباره إنسانًا له عواطف تجعله يفرح للنجاح ويحزن للفشل - أن يتحكم فى مدى تأثره العاطفى بمعنى أنه لو تم له النجاح فلا يصح أن يذهب به فرحه إلى درجة التهور أو الاستكانة السلبية أو الغفلة وترك الحذر ، وإذا فشل فى معركة فلا يصح أن يذهب به حزنه إلى درجة الانهيار المعنوى ، أى أنه مطلوب منه أن تكون مسافة التأرجح أو التذبذب العاطفى بين حالتى الفرح والحزن قصيرة بقدر الإمكان لأن هذه المسافة كلما قصرت كلما منحت المقاتل قدرة أكبر على الصمود فى المعركة الممتدة فيظل محتفظًا بثباته وقدرته القتالية فى جميع الأحوال حتى النهاية ، وهذا من مقومات النصر .

• ذلك بالضبط هو ما تعلمه المدرسة الإسلامية للمقاتل المؤمن ، والشر الذى يصيب المؤمن لا يحمله على اليأس ، والخير الذى يناله لا يحمله على البطر ، بل إن المؤمن ينتفع بما يصيبه من خير أو شر : فيتلقى الخير بالشكر ليزيده الله خيرًا ، ويتلقى الشر بالصبر ليزيده الله أجرًا ، وهو فى كلا الحالين كما يقول النبى ﷺ : «عجبًا لأمر المؤمن ، إن أمرَه كلَّه خير ، وليس ذلك إلا للمؤمن : إن أصابته سراءُ شكر فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراءُ صبر فكان خيرًا له» (رواه مسلم) .

١٩ - النصر أو الشهادة :

• وقد جعلت المدرسة الإسلامية شعار المجاهدين الصادقين فى قتال الأعداء : «النصر أو الشهادة» يقول سبحانه وتعالى : ﴿فَلْيُقَاتِلْ فى سَبِيلِ اللَّهِ الذين يَشْرونَ الحياةَ الدُّنيا بالآخِرةِ ومَن يُقَاتِلْ فى سَبِيلِ اللَّهِ فيُقْتَلْ أو يَغْلبْ فسوفَ نُؤْتِيه أجرًا عَظِيمًا﴾

[النساء : ٧٤]

• والمتأمل فى المقابلة بين يقتل (بضم الياء) ويغلب (بفتح الياء) قد يتساءل : لماذا لم يقل المولى جلت حكمته : فيغلب (بفتح الياء) أو يغلب (بضم الياء) ؟ لأن المقاتل إما أن يكون غالبًا أو مغلوبًا ؟.. ويمكن الإجابة على ذلك بأن المجاهد المؤمن لا يغلب أبدًا (أى لا يقهر) وذلك لأنه ينتظر إحدى الحسنيين ، ولا ثالث لهما فيما يقدره من نتائج ، لأنه فائز فى كل من النصر أو الشهادة غير مغلوب .

مقومات النصر
كما قررها الرسول القائد ﷺ
فى غزوة بدر الكبرى

«الإسلام لا يرضى للمسلمين – إذا ما واجهوا عدوًّا متفوقًا فى القوة – أن تخور قواهم أو يستسلموا ، وإنما يأمرهم بالثبات والصبر ، ويرشدهم – فى الوقت نفسه – إلى الطريقة التى يحصلون بها على النصر على عدوهم مهما كان ثقله فى موازين القوى..»

المقياس العلمى للنصر :

• يقرر خبراء الفن الحربى أن أسمى مهام القيادة هو : «الحصول على النصر فى الحرب بدون أو بأقل قدر من الخسائر فى الأرواح والمعدات وفى أقل وقت» .. أى أن النصر الحقيقى بالمقياس العلمى هو الذى يتم إحرازه بلا خسائر أو بأقل قدر منها وفى أقل وقت .

• وإذا كان هذا هو هدف القيادة فى الدول المتقدمة التى بلغت أعلى المستويات فى التقدم العلمى والتقنى والكفاءة القتالية ، فهو – من باب أولى – يعد بالنسبة للدول محدودة الموارد والقدرات أهم وأكبر أهدافها وذلك حتى لا تستنزف مواردها وقواها من أثر الحرب .

• على أن الأمر يزيد خطورة إذا حكمت الظروف الاستراتيجية أن تواجه الدولة عدوًّا متفوقًا عليها فى القوة على نحو تصبح المعركة ضده «معركة غير متكافئة» كما يقولون ، وفى مثل هذا الموقف قد تتخلى بعض الدول عن فكرة المقاومة تحسبًا للنتائج أو قد تستسلم..

موقف الإسلام :

• لكن الإسلام لا يرضى للمسلمين – إذا ما واجهوا عدوًّا متفوقًا – أن تخور قواهم أو يستسلموا ، وإنما يأمرهم بالثبات والصبر ، ويرشدهم – فى الوقت نفسه – إلى الطريقة التى يحصلون بها على النصر على عدوهم مهما كان ثقله فى ميزان القوى .

• ولقد ظهرت فى عصر النبوة نظرية متكاملة للنصر على العدو المتفوق تستحق أن يتدبرها المسلمون فى هذا العصر الذى أصبح فيه وضعهم فى موازين القوى العالمية فى غير صالحهم .

• فقد واجه المسلمون فى عصر النبوة فى كل معاركهم أعداء متفوقين لكنهم «قبلوا التحدى» ، وقاتلوا .. وانتصروا بإذن الله ، والأمر الذى يستحق التأمل حقًّا هو أن هذه النظرية قد ولدت بكل أركانها منذ المعركة الأولى بين الإسلام والمشركين وهى غزوة بدر الكبرى فى رمضان من السنة الثانية للهجرة .

• فى هذه الغزوة كان مستقبل الدعوة «مرهونا بنتائجها» ، وكان حصول المسلمين على النصر «قضية مصير» ، وذلك ما عبر عنه الرسول

القائد ﷺ وهو يدعو ربه قبل المعركة : «اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض» .

ه لقد حقق المسلمون في بدر بفضل الله نصرًا يتجاوز المقاييس العلمية ، إذ كان العدو متفوقًا بنسبة ثلاثة إلى واحد في الرجال (٣١٥ مقابل ٩٠٠ – ١٠٠٠) ومائة إلى واحد في الخيل (فرسان مقابل ٢٠٠ فرس) وبنسبة ساحقة في «السلاح والذخيرة» إذا ما قارنا بين جملة ما يحمله كل من الطرفين من السهام والرماح والسيوف !.

ه وكانت خسائر المسلمين أربعة عشر شهيدًا فقط بينما قتل من المشركين سبعون وأسر سبعون ، ولم تستغرق المعركة أكثر من يوم واحد ، أى أن النصر تحقق «بأقل الخسائر وفى أقل وقت فى مواجهة عدو متفوق» .

ه ولو عرض موقف الطرفين قبل المعركة على أى محلل عسكرى لكى يقدم توقعاته عن النتائج التى يمكن أن تسفر عنها ، لقال إن المسلمين سوف يدفعون ثمنًا باهظًا من الأرواح والسلاح لكى يحصلوا على النصر ، هذا إذا لم يتوقع أن ينهزموا أصلاً.

مقومات النصر الإسلامى :

ه وهكذا ينفرد الإسلام بمقومات للنصر لا تتسامى إليها عقول خبراء الحرب وتتجاوز مقاييسهم وهى تقوم على أركان قوية نذكر منها ما يلى:

الركن الأول – قوة الإيمان والعقيدة :

• لقد كان الإسلام حريصا على أن يزود المسلمين بأقوى الدوافع النفسية التى تملأ نفوسهم حميةً واستبسالاً ، فكانت هذه الدوافع الصادقة «تحارب» إلى جانب صاحبها كما يحارب الجندى إلى جانب صاحبه ، ولهذا كان حساب المسلمين فى موازين القوى «حسابًا خاصًا» لا يتسامى إليه غيرهم .

• فلقد كان حساب المقاتل المجاهد مُقَدرا بما في قلبه من إيمان وعقيدة ، وبما فى نفسه من مبادىء يحارب عنها ، وأسباب تدعوه إلى خوض هذه الحرب .

• وهذا ما نجده فى قول الله تعالى : ﴿يأيُّها النَّبىُّ حَرِّضِ المؤمِنينَ على القِتال إن يكن مّنكُم عِشْرُونَ صَابرُون يَغْلبُوا مائتين وإن يكُن مّنكم مِّائةٌ يَغْلبُوا ألفا من الذين كفرُوا بأنهم قومٌ لا يفقهُونَ﴾

[الأنفال : ٦٥]

وذلك لأن الذين كفروا قد خلت نفوسهم من المبادىء الكريمة والدوافع الصادقة ، ولهذا حُرموا «الفقه» الذى كان من شأنه أن يبصرهم بالمبادىء التى يقاتلون عنها ، والمثل التى يدافعون عنها ، ومن حُرم هذا الفقه فى مجال الحرب ، فقد «تعَرَّى» من كل سلاح يدافع عنه ، وكانت عاقبته الهزيمة والبوار .

• بهذه الحسابات الإسلامية ، أراد الله تعالى من المؤمنين أن يحققوا فى أنفسهم ما يجعلهم أهلاً لتلك الغَلَبة الفذة والانتصار الفريد ، من

التربية الخلقية والعسكرية ، والإقدام على التضحية وإتقان الجهاد والثبات فى مواطن البأس ، يبتغون إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة .

• بل لقد ضرب المسلمون فى هذا المجال أمثلة لا نظير لها فى تاريخ الحروب :

١ – أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه ، قتل أباه فى معركة بدر .

٢ – عبد الرحمن بن أبى بكر كان مع المشركين ، فقال لأبيه أبى بكر الصديق رضى الله عنه بعد إسلامه : «لقد صَدَفْتَ لى يوم بدر فلم أقتلك ، فقال أبو بكر : «والله لو صدفت لى لقتلتك» !

فما الذى يدعو إلى أن يقتل الابن أباه ، والأب ابنه ، غير الإيمان والعقيدة ؟

الركن الثانى – التخطيط العلمى السليم :

• ويعلمنا الرسول ﷺ أنه ليس فى الإسلام ذلك التواكل العاجز الذى يَدَع الأخذ بالأسباب ، وينتظر النصر منحة من القدر ، وهبة من السماء ، وأن جوهر الأخذ بالأسباب التخطيط العلمى السليم الذى يقوم على الأسس التالية :

١ – التخطيط على أحدث المعلومات

فلابد من الحصول على أكبر قدر من المعلومات عن العدو بصورة شاملة ، على أن يكون ذلك بصفة مستمرة وبدون انقطاع حتى

تأتى الخطة واقعية ومناسبة تمامًا «للمقام والظروف الموضوعية» ، وذلك من أهم مطالب التخطيط الحربى بخاصة ، وقد ظهر ذلك بوضوح فى غزوة بدر فى الأشكال العديدة والمختلفة للحصول على المعلومات ومنها ما يلى :

١ - مفارز (دوريات) الاستطلاع : فقد بعث الرسول ﷺ قبل المعركة بمفرزتين .

٢ - الاستطلاع الشخصى : حيث قام بنفسه بالاستطلاع .

٣ - استجواب (استنطاق) الأسرى : حيث استخلص منه قوة قريش التى خرجت للقتال (بين التسعمائة والألف) حين علم أنهم ينحرون من الإبل يومًا تسعة ويومًا عشرة .

٢ - مراعاة السرية والأمن :

• وفى والوقت الذى سعى الرسول ﷺ إلى لحصول على أكبر قدر من المعلومات عن عدوه ، نراه حريصًا على حرمان هذا العدو من الحصول على أية معلومات عن المسلمين حتى تظل أسرارهم مصونة :

١ - ومن ذلك أنه أمر بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل حتى لا يسمع لها صوت ، كما راعى أن يكون نظام (تشكيل) المسير فى هيئة مقدمة تقوم بالاستطلاع والوقاية ، يليها القوة الرئيسية ، ثم مؤخرة بإمرة قيس بن أبى صعصعة لوقاية ظهر المسلمين .

٢ – وفى أثناء قيامه بالاستطلاع الشخصى ، لقى شيخًا من العرب فأراد أن يحصل منه على معلومات عن قريش ، مع المحافظة – فى الوقت نفسه – على أسرار المسلمين ، فلم يسأل الشيخ عن قريش فقط ، بل سأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم ، لكن الشيخ رفض أن يجيب قبل أن يفصح الرسول وصاحبه أبو بكر (الذى كان معه فى الاستطلاع) عن هويتهما حيث سألهما : ممن أنتما ؟ .. فاستطاع عليه الصلاة والسلام أن «يؤجل» الإجابة حتى يحصل على المعلومات أولاً ، فقال للشيخ : «إذا أخبرتنا أخبرناك» وهكذا تم له ما أراد ، وعرف أخبار قريش ، ثم حينما أراد أن يجيب الشيخ عن سؤاله المؤجل (ممن أنتما) قال : «نحن من ماء» وهو رد صحيح (أى من ماء دافق وهو المنى) لكنه لا يفصح عن هويتهما ولا يكشف بالتالى أسرار المسلمين.

٣ – الشورى فى التخطيط :

« ويعلمنا الرسول ﷺ أن القيادة الرشيدة هى التى «لا تستأثر» بصنع القرار وإصدار التعليمات التى يتعين على المرءسين تنفيذها ، بل هى التى تحرص على أن يشترك معها فى تقدير المواقف وصنع القرار أكبر عدد ممكن من أصحاب الرأى والمختصين :

١ – فهو ﷺ لم يشأ أن يبت فى أمر الدخول فى المعركة مع المشركين حتى يستشير أصحابه ، فوجد منهم استعدادًا للقتال رغم تفوق العدو الظاهر فقرر دخول المعركة .

٢ - وأخذ بمشورة الحباب بن المنذر فانتقل بالجيش إلى حيث أشار لأنه يتيح للمسلمين التحكم فى بئر بدر .

٣ - وقد جرت سنته ﷺ على تطبيق قاعدة الشورى عند تصريف الأمور ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : «ما رأيت أحدًا قط كان أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ» (رواه أحمد والشافعى).

الركن الثالث - القيادة الموحدة

ووحدة الصف والهدف :

• فى غزوة بدر كان الرسول ﷺ هو القائد العام للمسلمين ، وكان المسلمون يقاتلون كرجل واحد ، لغاية واحدة ، أما على الجانب الآخر فلم تتوفر هذه المقومات ، فلم يكن للمشركين قائد واحد أو قيادة موحدة ، فقد كان أكثر زعماء قريش مع الجيش ، ولكن البارزين منهم على ما يظهر رجلان : عقبة بن ربيعة ، وأبو جهل ، ولم يكن لهما رأى واحد ، إذ أنهما اختلفا حول مبدأ البقاء لقتال المسلمين ، فأبو جهل أراد البقاء ، بينما عقبة تردد ، ومال إلى الأخذ بما نصحه به بعض قومه أن يرجع بالناس ، فلما رماه أبو جهل بالجبن ، أخذته الحمية وقرر البقاء للقتال من قبيل التحدى .

• أما عن الهدف ، فيكفى أن ننظر إلى هدف قريش الذى عبر عنه أبو جهل فى قوله : «والله لا نرجع حتى نَردَ بدرًا ، فنقيم عليه ثلاثة ، ننحر الجزور ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ،

وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها» !!..
فأين هذا الهدف «الجاهلى» من هدف المسلمين : «إعلاء كلمة الله ؟»

• وأما عن وحدة الصف ، فقد توفرت للمسلمين معنويًا وماديًا ، ولم يكن من قبيل الصدفة أن يُرسِّخ الرسول ﷺ فى وجدان المسلمين هذا المبدأ الحيوى ، بحرصه الشديد على أن تكون صفوف الجيش فى بدر على أعلى درجة من التنسيق والنظام ، وذلك بمروره على الصفوف ، وإعادة من وجده «خارجًا» عن الصف إلى موضعه الصحيح .

• فالإسلام بذلك يقرر ضرورة التلاحم بين القيادة والجيش من ناحية ، وبين أفراد الجيش بعضهم وبعض من ناحية أخرى فى وحدة متماسكة متضافرة فى مواجهة العدو .. وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنيانٌ مَرصُوصٌ﴾

[الصف : ٤]

ويقول الرسول ﷺ : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا» (رواه البيهقى) .

• ثم إن من بين ما يرشد إليه هذا التوجيه الإسلامى بوحدة الصف وتشبيه المقاتلين بالبنيان المرصوص المتماسك الذى يُقوِّى بعضه بعضًا ، أن على المسلمين «أن يحافظوا على صفوفهم قائمة باستمرار» ، فليس لأحد أن يتخلف عن الصف ، أو أن يعتذر عن البقاء فيه ، وأن عليهم أيضًا ألا يسمحوا بحدوث أية ثغر فى صفوفهم .

الركن الرابع – الاستغلال الأمثل للموارد المتاحة :

* فيوجه الإسلام المسلمين إلى حسن الاستفادة مما يملكون ومما فى أيديهم إلى أقصى حد «بطريقة اقتصادية رشيدة» ، بحيث لا يفقدون من هذه الموارد «مثقال ذرة» .. وفى بدر يعلمنا الرسول ﷺ كيف نحقق ذلك عن طريق «إحكام السيطرة على الموارد وتطبيق مبدأ الاقتصاد فى القوى» :

١ – إحكام السيطرة :

لقد أحكم الرسول ﷺ سيطرته على جيشه المحدود على النحو التالى :

(أ) نظم جيشه فى كتيبتين : كتيبة المهاجرين بقيادة على بن أبى طالب ، وكتيبة الأنصار بقيادة سعد بن معاذ .

(ب) واتخذ لنفسه مركز قيادة (العريش) يشرف منه على أرض المعركة ويستطيع منه إدارتها بإحكام فى كل مراحلها .

(جـ) ولم يقاتل بأسلوب الكر والفر الذى كانت عليه عادة العرب ، بل اتبع أسلوبا آخر هو أسلوب الصفوف ، وهو يضمن للقائد إحكام السيطرة على رجاله ، أما أسلوب الكر والفر فيجعل سيطرة القائد صعبة عمليًا .

(د) ثم توج عليه الصلاة والسلام تدابير سيطرته بأن أصدر «أمر قتال» جاءت محتوياته بكل ما يحقق له السيطرة على أعمال الجيش فى

مراحل المعركة المختلفة وما يجعل المسلمين لا يقومون بأى عمل إلا بأمره كمايلى :

• «لا تقاتلوا حتى أوذنكم ، وإن اكتنفوكم فارموهم ، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم» (الواقدى) .

• «إذا أكثبوكم (أى اقتربوا منكم» فارموهم ، واستبقوانبلكم» (البخارى) .

٢ – استغلال طاقات كل سلاح إلى أقصى حد :

• فيبدأ المسلمون أولا برمى السهام (فارموهم) وهو السلاح «بعيد المدى» .

• وبعد أن يستغلوا طاقات هذا السلاح إلى أقصى حد حتى يصل العدو إلى حد الالتحام ، يتحولون إلى السيف وهو سلاح القتال المتلاحم (ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم) .

• بهذا الوضوح فى تحديد وقت وظروف استخدام كل سلاح لا يحدث خلط «يضيع» معه شىء من الطاقات المتاحة هباء .

٣ – الاقتصاد الشديد فى الذخيرة :

• فإن معنى «إذا أكثبوكم» تأخير قذف السهام حتى يقترب الأعداء جدًّا .

• ومعنى «واستبقوا نبلكم» ألا يتسرع المسلمون فى إطلاقها فالسهام عددها محدود أصلا لقلة عدد أفراد الجيش فإذا بدأ المسلمون فى إطلاقها مبكرا والعدو بعيد ، أو تسرعوا فى إطلاقها قبل التأكد من دقة التصويب ، فسوف يطيش من سهامهم الكثير لعدم دقة التصويب على البعد .

• وهكذا يحقق تنفيذ أمر القتال هدفين فى وقت واحد :

«الاقتصاد فى استهلاك» الذخيرة المحدودة — وضمان «دقة الإصابة» .

• والأمر الذى يستحق التأمل أن هذا الأمر ينطوى على القاعدة التى يسميها العسكريون «حبس أو كبت النيران فى الدفاع» فبالرغم من أن مدى البنادق الحديثة يصل إلى ١٠٠٠ ياردة على الأقل ، فإن أصول الرمى فى الدفاع تقضى بأن «يحبس» المدافعون نيران بنادقهم إلى أن يقترب العدو جدًّا (١٠٠ ياردة أو أقل) فيطلقوا رصاصهم ، وذلك حتى يضمنوا دقة الإصابة مع الاقتصاد فى استهلاك الذخيرة فى الوقت نفسه ، ويكون فى ذلك تطبيق لمبدأ «الاقتصاد فى القوى» ومبدأ «تحقيق الأهداف بأعلى قدر من الكفاية وبأقل التكاليف» ، وهما من أهم مبادىء علم الإدارة عامة والعلم العسكرى بخاصة .

• وقد سار المسلمون على هذا النهج بعد عصر النبوة ، فقد ورد فى شرح القسطلانى : «أن العدو إذا زحف ، أمهله رماة المسلمين حتى يكون فى متناول السهام ، ثم أمطروه بوابل من سهامهم وهم جاثون على ركبهم

جماعات جماعات ، بحيث تخرج سهامهم مجتمعة كأنها صادرة عن قوس واحدة»[1].

الركن الخامس – الإخلال بالتوازن النفسى والمادى للعدو :

• وتوجه النظرية الإسلامية إلى استغلال أحد العوامل الهامة فى التأثير على سلوك الإنسان وهو «العامل النفسى» فتقرر أن يسعى المسلمون إلى «إحداث الخلل والاضطراب فى التوازن النفسى والمادى للعدو» .

وقد أجمع رجال الاستراتيجية العسكرية على أن ذلك من أقوى عوامل النصر ، فهم يحللون الآثار المادية والمعنوية لهذا العمل فيمايلى :

١ – إحداث «انطباع مفاجىء» فى أذهان قادة العدو وأفراده بأنهم «يواجهون موقفًا سيئًا» .

٢ – فرض حالة من التشتت والتمزق النفسى تنبع من إحساس قادة العدو بوقوعهم فى «فخ» يصعب التخلص منه .

٣ – خلق الشعور بالعجز عن القيام «بعمل مضاد» لحركة الطرف الآخر .

• وفى التاريخ أمثلة كثيرة لقوات أو شعوب محدودة الموارد والقوة تمكنت من قهر قوى أكبر منها ومتفوقة عليها ، أو حرمانها من تحقيق

---

(١) شرح القسطلاني جـ ٥ ص ٩٤ وعيون الأخبار جـ ١ ص ١٠٧.

أهدافها من العدوان ، وذلك بفضل نجاحها فى الإخلال بتوازنها النفسى والمادىء ومن أمثلة ذلك حروب التحرير المختلفة .

* فماذا فعل المسلمون ؟ :

ففى بدر استطاع الرسول ﷺ إفقاد أعدائه توازنهم النفسى والمادى من خلال عدة أمور نذكر منها مايلى :

١ - إصابة العدو بالصدمة النفسية منذ اللحظة الأولى :

ففى مرحلة المبارزة التى سبقت القتال - كما هى عادة العرب فى ذلك الوقت - حرص الرسول ﷺ على أن «ينتقى» من رجاله ذوى الكفاءة العالية فى المبارزة والقتال ، ومن يتصفون بالشجاعة الفائقة وذلك حتى يكون تغلبهم على رجالات قريش المبارزين أكيدًا .

وقد تحقق له صلوات الله وسلامه عليه ما أراد ، فقد قُتل مبارزو قريش جميعًا ، فكان ذلك - ولاشك - بالنسبة لقريش «استهلالاً سيئًا» صدم نفوسهم ، وهز معنوياتهم «من قبل» أن تبدأ المعركة الفعلية ، فضلاً عن ماله من أثر فى رفع معنويات المسلمين فى الوقت نفسه .

٢ - المباغتة بأسلوب جديد فى القتال :

إن مفهوم المباغتة ببساطة هو «إحداث موقف لا يكون العدو مستعدًّا له» ، وللمباغتة آثار مادية ومعنوية على الكفاءة القتالية للجيش الذى يتعرض

لها ، ففى بدر باغت الرسول ﷺ أعداءه باتخاذ أسلوب الصف ، وهو مخالف لما اعتادت عليه العرب من القتال بالكر والفر . وهنا لا ينبغى أن يفوتنا أن نتدبر الدرس الذى تنطوى عليه هذه الواقعة ، فالرسول ﷺ خالف الأسلوب الذى كان سائدًا ومألوفًا فى القتال ، فكان ذلك نوعًا من التغيير والتطوير الذى اقتضته الظروف الموضوعية ، فنتعلم منه أن التطوير آية من آيات القيادة الرشيدة التى «لا تُجمد» فكرها على الأساليب الموروثة أو المعروفة ، بل تبحث دائمًا عن الجديد والأفضل .

٣ – تكبيد العدو أكبر الخسائر فى أقصر وقت :

وهو ما يتحقق بالتأكيد نتيجة تنفيذ تعليمات الرسول للقتال ، فتأخير إطلاق السهام ، ودقة التصويب ، ينتج عنهما ألا يطيش من سهام المسلمين سهم ، بل يكون «كل سهم برجل» .

كما أن سيطرة القائد المحكمة على الرمى من حيث التوقيت (لا تقاتلوا حتى أوذنكم) تؤدى إلى انطلاق السهام «بأكبر حشد» وفى لحظة واحدة «كأنها صادرة عن قوس واحدة» .

كل ذلك يؤدى بلاشك إلى تساقط أعداد كبيرة من أفراد العدو صرعى فى أقصى وقت ، فمن اليسير أن نتصور ما يكون لذلك من وقع على توازن العدو (قريش) الذى جاء إلى المعركة مَزْهُوًّا بقوته وبتفوقه الساحق الظاهر .. ويتفق خبراء الحروب على أن تكبيد العدو خسائر كبيرة فى وقت قصير يشكل «ضربة مدمرة» لتوازنة النفسى ، فيقول شارنهورست فى كتابه (التكتيك) : «إن عشرة

رجال يسقطون معًا فى ميذان المعركة ، يُجبرون فوجا (حوالى ١٠٠٠ جندى) على التراجع بصورة مؤكدة ، أكثر من خمسين جريحًا يسقطون تدريجيا فى أماكن مختلفة» .

٤ - اصطياد قادة العدو :

ففى أثناء المعركة فى بدر أمر الرسول ﷺ بعض المسلمين بتوجيه كل همهم لاصطياد زعماء قريش من بين الصفوف واستئصالهم (وهو ما يعرف بأعمال القناصة) لكى تحدث بقتلهم صدمة وارتباك فى صفوف الأعداء ، ومن ذلك أنه كلف بلالا لاصطياد أمية بن خلف .

٥ - سيطرة المسلمين على الماء !

لقد كسب المسلمون - حتى قبل أن تبدأ المعركة - «نقطة تفوق» على عدوهم باتخاذهم موقعًا يسيطر على ماء بدر (البئر) وهو أمر بالغ الأهمية فى حروب الصحراء ، ثم إن من أهم ما يسعى إليه القائد المحنك أن يَجُرَّ عدوه إلى الدخول معه فى معركة فوق أرض من اختياره هو ، وبذلك يوقعه فى حالة من التشتت والتمزق النفسى ، وقد عبر عن تلك الحالة اندفاع الأسود بن عبد الأسد ، من صفوف قريش ، وهجومه على الحوض الذى بناه المسلمون على بئر بدر وهو يصيح : أعاهد الله لأشربن من حوضهم ، أو لأهدمنه ، أو لأموتن دونه !!

وبعد ، فقد قدم لنا الرسول القائد ﷺ نظرية مكتملة الأركان للنصر حتى لو كان العدو متفوقًا ، أثبت فيها «بالبرهان العملى» أن القوة محدودة

الموارد والقدرات تستطيع بقوة الإيمان والعقيدة ، مع الإدارة العلمية والتخطيط السليم ووحدة القيادة والهدف والصف والاستغلال الأمثل للموارد المتاحة واستغلال العامل النفسى لتجريد العدو من إرادة القتال ، تستطيع أن تقهر عدوها مهما كان تفوقه ومهما كان ثقله فى ميزان القوى .

وإننى أدعو الأمة العربية والإسلامية إلى العناية بتدريس العسكرية الإسلامية والتاريخ الحربى الإسلامى فى كلياتها العسكرية إحياء لهذا الجانب الرائد من حضارة الإسلام ، وإفادة من دروسها النافعة ، واتباعا لنهج الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم فى الحفاظ على تاريخهم ، قال زين العابدين بن الحسين بن على رضى الله عنهم :

«كنا نعلم مغازى رسول الله ﷺ كما نُعلم السوَر من القرآن» وقال إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنهم :

«كان أبى يعلمنا المغازى والسرايا ويقول : يابنى ، إنها شرف آبائكم فلا تضيعوا ذكرها»[1].

(١) الحلبى : السيرة الحلبية جـ ١ ص ٣.

الرسول ينتزع المبادأة من يد أعدائه

روى الإمام أحمد والبخارى عن سليمان بن صُرَد والبزار برجال ثقات ، وأبو نعيم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهم ، والبيهقى عن قتادة رحمه الله أن رسول الله ﷺ قال حين أجلى الله تعالى عنه الأحزابَ : الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم[1] .

قرار خطير ونقطة تحول تاريخية :

هذا الحديث الشريف ، قرار خطير فى تاريخ الإسلام يستحق أن نقف أمامه بكثير من التأمل والتدبر . لما ينطوى عليه وما ترتب عليه من دروس تنفع المسلمين وتنير لهم الطريق للخروج من واقعهم الأليم .. ﴿وكُلاً نَقُصُّ عليكَ من أنبَاءِ الرسُلِ ما نُثبِّتُ به فؤادَكَ وجَاءكَ فى هذه الحقُّ وموعظةٌ وذكرى للمؤمنينَ﴾

[هود : ١٢٠]

---

(١) محمد بن يوسف الصالحى الشامى ، سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد جـ ٤ – ٥٤٩.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيبيِّن لكُمْ ويَهْديكُمْ سُنَنَ الَّذينَ من قبلِكُمْ ويتُوبَ عليكُمْ واللَّهُ عليمٌ حكيمٌ﴾

[النساء : ٢٦]

فلقد كان هذا القرار نقطة تحول بارزة فى صراع المسلمين مع أعدائهم فى عصر النبوة ، انتقلت فيها المبادأة[1] إلى أيديهم لأول مرة فى تاريخ هذا الصراع ، وترتب على هذا الانتقال آثار بعيدة المدى .. فطوال الفترة التى قضوها فى المدينة من يوم الهجرة إلى ما قبل غزوة الخندق ، كانوا يتلقون هجمات أعدائهم ويواجهونها «بمعارك دفاعية» كان أبرزها غزوة بدر فى السنة الثانية للهجرة وأحد فى السنة الثالثة : ثم كانت غزوة الخندق فى السنة الخامسة التى واجهوا فيها هجوم قريش والقبائل العربية واليهود .. فقرار الرسول القائد ﷺ بعد غزوة الخندق (الأحزاب) : «الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم» ، معناه أن يتحول المسلمون من الدفاع إلى الهجوم ، وأن يسيروا إلى أعدائهم بدلاً من البقاء إنتظارًا لضرباتهم ، وبعبارة أخرى فإن معنى القرار أن يتحول المسلمون من حالة «رد الفعل» إلى «الفعل» .. ولابد هنا من أن نصحح ما فى بعض الأذهان من خطأ فى فهم معنى «الهجوم» على أنه يعنى العدوان

---

(١) المبادأة (أو المبادرة) معناها باختصار حرية العمل ، والذى يملك المبادأة يحرم خصمه من حرية العمل ، ويحصر أعماله فى نطاق رد الفعل وإحراز المبادأة من أهم عوامل النصر والنجاح فى الحرب والسياسية على حد سواء .

أو الاغتصاب ، فالهجوم شكل من أشكال العمليات الحربية تتحرك فيه القوة إلى العدو وتوجه ضربتها إليه فى مواقعه ، وطبيعة الحرب تجعل الهجوم شكلاً من الأشكال الضرورية لتحقيق الأهداف حتى فى إطار العمليات الدفاعية ، ومن الأقوال الشهيرة فى هذا المجال : «الهجوم خير وسيلة للدفاع» .

فليس من صواب الرأى أن نعتبر الهجوم مرادفًا للعدوان أو منطويًا على نواياه ، ولقد أوضح لنا الرسول القائد ﷺ هذا المعنى وأكده فى معارك عصر النبوة فكل الغزوات والسرايا التى تحرك فيها المسلمون إلى عدوهم ليوجهوا إليه ضرباتهم هى «عمليات هجومية» تمت فى إطار «استراتيجية دفاعية» تستهدف الدفاع عن الدعوة وحرية التدين ، ولم يكن العدوان أو الاغتصاب أو القهر هدفًا من أهدافها ، وإنما كانت أهدافها حقًّا وعدلاً ودفعًا للاعتداء وإعلاء لكلمة الله .

أسس هذا التحول التاريخى :

وخطورة هذا القرار التاريخى وما ترتب على تنفيذه من نتائج تدعونا إلى محاولة تقصى الأسس التى بنى عليها ، فإن تنفيذ هذا القرار ينطوى على مواجهة تحديات كبيرة أهمها أن المسلمين فى عملياتهم المقبلة ضد قريش سوف يتركون المدينة قاعدتهم الرئيسية ، ويسيرون أربعمائة كيلو متر فى أرض أقل ما يقال فيها أنها «أرض غير صديقة» ، ثم يتجهون إلى مكة قاعدة قريش الرئيسية بكل

ما فيها من قوة بشرية بأكبر حشد ، وبكل ما فيها من «حوافز معنوية» لأهلها للدفاع عنها فى معركة تعد «معركة مصير» بالنسبة إليهم .

وليس من شك فى أن الرسول ﷺ كان مدركا لحجم هذه التحديات التى لم يسبق أن واجه المسلمون مثلها ، – ومع ذلك – كان «مطمئنًا» إلى إتخاذ قراره بكل ما له من عواقب ونتائج .

والواقع أن مما يعين على استخلاص أسس ذلك القرار ، استقراء تطور الأحداث خلال السنوات الخمس الأولى للهجرة :

فشل قريش فى تحقيق أهدافها :

ففى خلال تلك الفترة كانت قريش تملك زمام المبادأة ، لكنها لم تستطع تحقيق هدفها الأساسى وهو القضاء على الإسلام أو القضاء على المسلمين فى موطنهم الجديد ، لقد قاتلت المسلمين فى عدة معارك ، أهمها بدر وأحد والخندق بلا جدوى .

حتى فى تلك الغزوة الأخيرة (الخندق) التى أرادت لها أن تكون «فاصلة» ، فحشدت لها كل ما أمكنها حشده من قوى أخرى إلى جانب قوتها متمثلة فى القبائل العربية واليهود ، لم تُجدِها شيئًا .. والذى يتصور أن قريشًا – إزاء هذا الفشل – سوف تضعف عزيمتها ، ويفتر استعدادها للعودة إلى التجربة مرة أُخرى .

وهنا تظهر عبقرية الرسول ﷺ في فهمه لطبائع البشر ، وفراسته في «رصد ملامح الضعف» في قوة خصمه ، وسرعته الفائقة في إتخاذ القرار الصحيح في الوقت الملائم تماما لتوجيه «الضربة القاضية» .. الآن نغزوهم ، ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم !!

الضغط الاقتصادى على قريش :

وخلال تلك الفترة نجح المسلمون في فرض الحصار الاقتصادى على قريش بالسيطرة على طريق التجارة إلى الشام ، ثم على طريق العراق الذى تحولت إليه ، فبعد أن أصبح طريق الشام محفوفًا بالمخاطر ، تحولت قريش إلى طريق العراق ، فقد قال صفوان بن أميه : «إن محمدًا وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا ، فما ندرى كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه ، فما ندرى أين نسلك ، وإن أقمنا في دارنا هذه ، أكلنا رءوس أموالنا ، فلم يكن لها من بقاء ، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف وإلى الحبشة في الشتاء» فأشار عليه الأسود بن عبد المطلب أن يتخذ طريق العراق ، ففعل ، وتجهز من البضائع والفضة بما قيمته مائة ألف درهم ، غير أن الرسول ﷺ بعث زيد بن حارثة في مائة راكب فاستولى على القافلة وهي في طريقها عند ماء يقال له (القَرَدة) من مياه نجد ، وهكذا لم يعد أمام قريش إلا التجارة مع الحبشة ، وكان لذلك أسوأ الأثر على حياتها الاقتصادية .

فلا بد وأن يكون لهذا الضغط الاقتصادى أثر كبير فى دعوة قريش إلى أن «تعيد النظر فى موقفها» ضد المسلمين ، فيكون الضغط العسكرى الذى يتحقق بعد انتزاع المبادأة ، «دافعًا» لها أكثر وأكثر فى هذا الاتجاه .

تأمين قاعدة المدينة :

لقد أصبحت المدينة خلال تلك الفترة «قاعدة أمينة» يستطيع الرسول ﷺ أن «يتركها» خلفه ، ويبعد عنها ما شاء من مسافات ، «ويغيب» عنها ما شاء من زمن ، ثم «يعود» إليها ، ليجدها - كما تركها - صلبة قوية أمينة .

والواقع أن تأمين المدينة كقاعدة للإسلام ، بدأ منذ اللحظة الأولى لوصول المسلمين إليها بعد الهجرة ، فكان أول ما عمد إليه الرسول القائد ﷺ «إقامة جبهة داخلية صلبة» وذلك بجمع صفوف المسلمين وتوحيد جبهتهم وإيجاد رابطة قوية بينهم (توحيد صف الأنصار من أوس وخزرج ، والمؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين) ثم بتنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية لكافة سكان المدينة من المسلمين والمشركين واليهود بمقتضى ميثاق المدينة .. كل ذلك تأمين للقاعدة «من الداخل» ..

ثم كان تأمين المدينة «من الخارج» بعقد المعاهدات والاتفاقات مع مختلف القبائل العربية ، فهذه الاتفاقات - فضلا عن أنها كفلت حرية الدعوة - فقد كفلت حسن الجوار والمعاملة وهو ينطوى على تأمين كبير

للمدينة لأنه يحرم قريشًا من الاعتماد على هذه القبائل أو محالفتها أو إتخاذها «قاعدة» للعدوان على المدينة .

كفاءة أجهزة المعلومات والأمن :

وثبت خلال تلك الفترة أن للمسلمين أجهزة للمعلومات والأمن على درجة عالية من الكفاءة ، تتمثل فى أمرين ، الأمر الأول شبكة من العيون والأرصاد منتشرة فى أنحاء شبه الجزيرة ، لإبلاغ الرسول ﷺ بالمعلومات عن نوايا أعدائه وحركاتهم ، فقد علم ﷺ من عمه العباس فى مكة بتجهيز قريش لمهاجمته قبل غزوة أحد وغزوة الخندق ، وكان الدليل الناصع على كفاءة أجهزة المعلومات هذه أن المسلمين «لم يؤخذوا على غرة أبدًا» ، فشكلت بذلك مصدر أمن مستمر يكون له دور فعال فى تأمين حركة المسلمين وحرمان أعدائهم من مباغتتهم .

ثم نضيف إلى أجهزة المعلومات ، جهاز الأمن الذى نجح فى المحافظة على أسرار المسلمين وحرمان العدو من كشفها ، وواقعة منع رسالة حاطب ابن أبى بلتعة من أن تصل إلى قريش قبل غزوة الفتح خير ما يذكر دليلاً على ذلك ، هذا بالإضافة إلى ما كان لدى المسلمين من وعى الأمن والمحافظة على الأسرار .

تنفيذ القرار :

لقد كان فتح مكة بطبيعة الحال هو قمة الأعمال التنفيذية لقرار انتزاع المبادأة ، باعتبار أن مكة هى الهدف الرئيسى ، لكن الفتح لم يقع إلا فى

رمضان من السنة الثامنة للهجرة أى بعد صدور القرار بسنوات ثلاث تقريبًا ، فما هو السر فى هذا ؟ الواقع أن دراسة أحداث تلك الفترة من بعد الخندق إلى ما قبل الفتح تكشف عن مخطط بالغ الدقة والإحكام مهد الطريق تمامًا لسير المسلمين إلى هدفهم الرئيسى مكة ، كما أنها تبرز لنا درسًا عظيمًا يعلم المسلمين أن يبتعدوا عن العمل المتسرع أو غير المخطط ، وأن تكون خطواتهم نحو أهدافهم محسوبة بكل الدقة والإحكام .

فإنه يلفت نظر الباحث المدقق أن الغالبية العظمى لسرايا القتال بعثت خلال تلك الفترة (أكثر من ثلاثة أرباع مجموع عدد السرايا) ، كما أن الرسول ﷺ قاد فى تلك الفترة خمس غزوات هى بنى قريظة وبنى لحيان وذى قرد والحديبية وخيبر .

توطيد الأمن فى المنطقة الشمالية :

أما بعث هذا العدد الكبير من السرايا فكان لتأمين المنطقة الشمالية حتى حدود الشام ، والعراق ، والسيطرة على القبائل العربية فى تلك المنطقة مثل هوازن ، وبنى كلاب ، وبنى مرة وبنى عوال وبنى عبد بن ثعلبة ، وغطفان ، وبنى سليم ، وبنى الملوح وجهينة ، والقبائل التى عاونت الروم ضد المسلمين .

القضاء على اليهود عسكريا :

وأما الغزوات فقد قضى الرسول ﷺ على اليهود عسكريًا بغزوهم فى بنى قريظة وخيبر .

لقد فتح اليهود – بنقضهم العهد – «جبهة ثانية» ضد المسلمين كان عليهم أن يواجهوها بالردع الذى تستحقه ، وكانت غزوة خيبر ضربتهم القاضية ، إذ كانت المعقل الرئيسى لليهود فى شبه الجزيرة ، وكان بها سبعة حصون تكتنفها البساتين ، وكان أهلها أقوياء مسلحين استماتوا فى الدفاع إذ كانوا يعلمون علم اليقين أن إندحارهم معناه القضاء الأخير على بنى إسرائيل فى شبه الجزيرة .

وهكذا أمن الرسول القائد ﷺ – بسقوط خيبر – بأس اليهود ، وآمن بأنهم لن تقوم لهم بعد ذلك قائمة ، وبأنه يستطيع بعد ذلك أن يتحرك جنوبًا نحو هدفه الرئيسى .

زيادة قوة الجيش ورفع كفاءته القتالية :

ولقد أتاحت غزوة الحديبية قيام هدنة أتاحت للمسلمين أن يزيدوا من حجم الجيش إلى درجة لم يكونوا بالغيها من قبل ، يؤكد ذلك مقارنة قوة الجيش فى غزوة الخندق بقوته فى الفتح ، ففى الخندق كانت القوة ثلاثة آلاف ، وفى الفتح كانت عشرة آلاف ، وتلك قفزة كبيرة فى زمن قصير نسبيًا .

وارتفعت كفاءة الجيش القتالية إلى أقصى حد ، بعد أن بلغ رصيده من عمليات القتال منذ بدأ الصراع فى السنة الثانية للهجرة إلى ما قبل الفتح قرابة ستين عملية ، قاد منها الرسول ﷺ أربعا وعشرين غزوة ، وقاد أصحابه ما بقى منها ، ومارس المسلمون فى هذه العمليات كل أشكال

القتال من دفاع وهجوم ومطاردة وإغارات ، وقتال فى القرى ، وحصار المواقع الحصينة ، وغيرها ، كما أصبح للجيش عدد كبير من القادة الأكفاء القادرين على قيادة العمليات المستقلة .

إضعاف إرادة قريش القتالية :

وأصيبت إرادة قريش القتالية بالضعف نتيجة لعدة عوامل نذكر منها :

- تجريدها من الحلفاء وخاصة اليهود بعد القضاء عليهم عسكريًّا .
- انفتاح المجال أمام الرسول ﷺ – بعد الحديبية – لمحالفة القبائل التى لم تكن مطمئنة إلى محالفته لقوة قريش لوجود الكعبة فى مكة مما أضعف شوكة قريش .
- انتشار الإسلام جعل جانبًا من قريش يدين بالإسلام وجانبًا آخر باقيًا على الشرك فأصبح من المستحيل أن «تجتمع كلمتها» على حرب المسلمين .

أغلى الدروس :

وهكذا أصدر الرسول ﷺ قراره التاريخى بانتزاع المبادأة – فى الوقت المناسب – من يد أعدائه ، وانتقل بالمسلمين من نطاق رد الفعل إلى نطاق الفعل فى غير اندفاع أو مجازفة ، بل بتخطيط سليم ، وخطوات محسوبة ،

واضعًا فى إعتباره كل العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية ، ثمّ سار نحو هدفه الرئيسى فحققه على أكمل ما يكون التحقيق ، وجنى ثمرة الأخذ بالأسباب والإعداد والاستعداد ، واثقًا – منذ البداية – من معية الله ، شاكرًا لربه ومسبحًا بحمده على النصر والفتح ورؤية الناس يدخلون فى دين الله أفواجًا..

الفهرست

صفحة

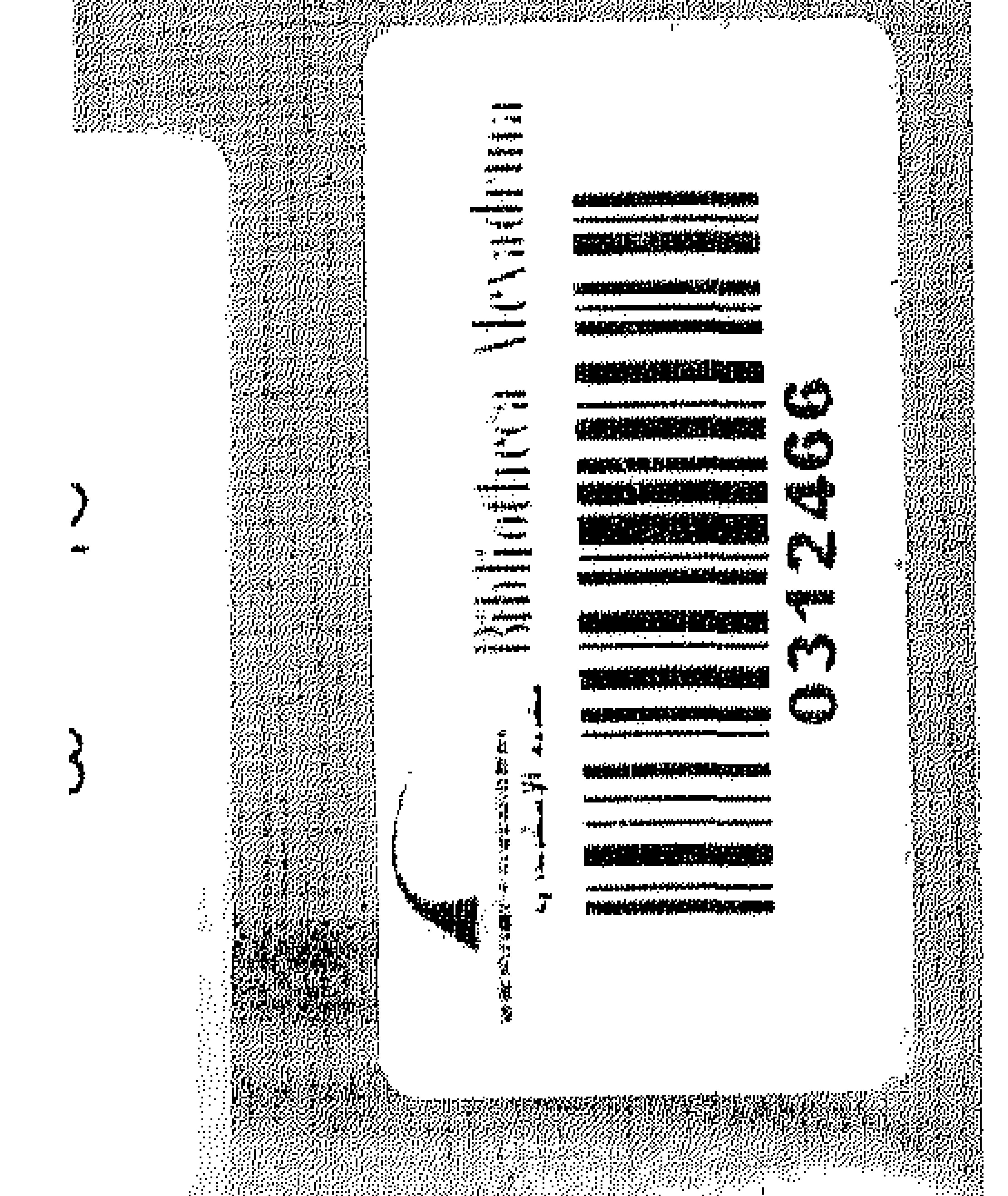
رقم الإيداع	١٩٩٤ / ٨١٧٢
الترقيم الدولى	ISBN 977 - 02 - 4687 - 5

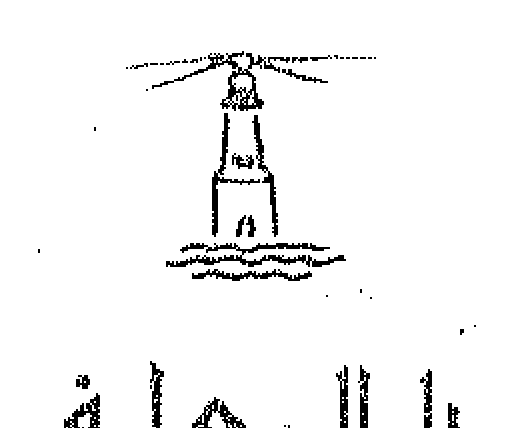
١ / ٩٢ / ٢٢٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

الاسلام حضارة كاملة ودستور
شامل لأمور الحياة . ولما كانت
الحرب ظاهرة إجتماعية ، فقد
عالجهـــا الإسلام ووضع لهـــا
المبادىء الرئيسية لكل ما يتصل بها
من حيث أهدافها وأساليب إدارتها
وقوانينها وأدابها.

كتاب جديد فى موضوعه





دار المعارف